عبد الوهاب مطاوع

سلطانة العمر

الدار المصرية اللبنانية

ساعات من العمر

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت تليفون: 23910250
فاكس: 23909618 – ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

رقم الإيداع : 11546 / 1997
الترقيم الدولى : 5 - 381 - 270 - 977

الطبعة الرابعة : ربيع ثانى 1425هـ - مايو 2004م
الطبعة الخامسة : جمادى الأولى 1429هـ - يونيو 2008م
الرسوم الداخلية والغلاف الفنان : عمرو فهمى

عبد الوهاب مطاوع

ساعات من العمر

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۞ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۞ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾

صدق الله العظيم

مقدمـــة

إنها ساعات من العمر عشتها وعانيت انفعالاتها سلباً وإيجاباً ، وفكرت فى أن أشركك معى فيها لعل فيها بعض ما يضيف إلى خبرتك بالحياة شيئًا جديداً ، أو لعل فيها ما يزيد من إيمانك بالحياة والخير والإنسان .

وما حياة الكاتب إلا تجارب وأحداث ينفعل بها ، ويتفاعل معها ، وتختلط فى أعماقه بذكرياته السابقة ، وآماله وإحباطاته القديمة . وحين يجلس إلى أوراقه وقلمه ليكتب ، فإنه يعيد إفرازها على الورق مختلطة بأحلامه الذاتية وآماله العامة للبشر والحياة . ولأن حياتى فى مجملها كانت حياة بسيطة لا تعرف التحولات الحادة أو الطفرات الكبرى ، فلقد جاءت « ساعات العمر » التى اخترت أن أحدثك عنها فى هذا الكتاب ، أيضاً بسيطة وعابرة ، لكنها استوقفتنى فوقفت أمامها أتأملها وأفكر فيها ، ولعلها تستوقفك أنت أيضًا وتجد فيها بعض ما تستحق التفكير والتأمل . . وشكراً .

عبد الوهاب مطاوع

دورى يادنيا

منذ عشرين عاما كنت أقضى سهراتى فى مقهى بوسط المدينة ، تتجمع فيه كل ليلة مجموعة من المثقفين والفنانين ، وكانت إحدى حلقات الرواد تضم عددا من الفنانين الباحثين عن أنفسهم ومستقبلهم، يتجمعون كل ليلة ويتحدثون فى الفن والسياسة . . وينتقدون الأوضاع الخاطئة . . ويحلمون بالمستقبل الواعد الذى تتحقق فيه احلامهم وأفكارهم المثالية . وكانوا جميعا مكافحين يغالبون ظروفهم القاسية، ويواجهون كل ليلة مشكلة أزلية عند دفع الحساب ويسميهم جارسون المقهى الخبير بالنفوس البشرية . . شلة «الحساب بكره » ! ، حيث لن يأتى الغد بأفضل من اليوم . . وهكذا سيظل الحساب مؤجلا إلى مالا نهاية .

وكنت بطبعى القديم ـ الذى لاأجد له تفسيرا ـ أميل لمصادقة هذه الشلة المكافحة، وأرقب طموحها وتطلعها للمستقبل بقلب يدعو لكل منهم بأن يحقق الله له آماله فى الحياة فى الوقت المناسب . . قبل أن يفقد قدرته على الاستمتاع بما يحقق من نجاح . . وبغير أن يدفع من صحته

وسعادته وروحه ثمنا غاليا لما تعطيه له الدنيا ، كعادتها دائما مع المتطلعين المكافحين . . حين تستجيب أحيانا لأمنياتهم ، وتعطيهم مايريدون ، ولكن بعد دفع الضريبة الواجبة !

ومن بين أفراد هذه الشلة . . كان أحدهم يلفت انتباهى ، ليس فقط بظروفه القاسية ، لأن الجميع مكافحون مثله، وإنما بروحه العالية، وابتسامته الدائمة ، وخلو نفسه من المرارة والحقد على الناجحين والأثرياء رغم قسوة ظروفه . ولم يكن هذا الصديق جاهلا، ولا مدعيا ، وإنما كان موهوبا فى الموسيقى ، وصقل موهبته بالدراسة العلمية، وجاء ترتيبه الأول على دفعته فى معهد الموسيقى ومع ذلك . . فلم تكن له وظيفة تدر عليه دخلا ثابتا . . ولم تعتمده الإذاعة كملحن، أو كمطرب ، مع أن صوته أجمل من أصوات عشرات المطربين الشباب الذين ظهروا فيما بعد ، وجمعوا ثروات طائلة فى سنوات قليلة . ولست أعرف حتى الآن كيف كان يكسب رزقه فى هذه الفترة من حياته . . فلقد كانت معظم الحفلات التى يغنى فيها فى النقابات المهنية حفلات مناسبات وطنية ، لا يتقاضى عنها أجرا . . كما كان ينزل ضيفا على بيوت أصدقائه ، لأنه لا يستطيع استئجار مسكن خاص به . ومع ذلك . . فقد كان دائما مبتسما ومتفائلا ومؤمنا بنفسه وبموهبته وبأفكاره ومثالياته ، وغنانا ذات ليلة فى بيت أحد الأصدقاء أغنية جميلة من ألحانه اسمها «دورى يادنيا » . . فطربت للحنها وكلماتها ولصوته ، وتخيلته وكأنه يقول للدنيا : دورى كيف تشائين . . وارفعى من تشائين ،

واخفضى من تشائين . . فسوف يأتى دورى ذات يوم قريب وأنال ما أستحقه منك .

ورق قلبى له وهو يحتضن عوده الرخيص ، ويغمض عينيه ويغنى فى سلام مع نفسه ، كأنما قد جمع بين يديه كل أسباب السعادة . سألته ذات مرة عن ثمن هذا العود . . فلم يفعل كما يفعل بعض المدعين ، ويزعم لى أنه عود أثرى لايقدر بمال ، وإنما أجابنى ببساطة بأن ثمنه خمسة جنيهات ! وكان ذلك الثمن وقتها هو أقل ثمن لأرخص عود يباع للهواة ومن يبدأون تعلم العزف . وقلت له مشجعا ومؤمنا به :

ـ سيكون لك ذات يوم عود ثمنه بالآلاف !

ففوجئت به يقول لى بتأكيد واطمئنان : سيأتى كل شىء فى حينه . . فلا تنزعج من أجلى ! .

وازددت حبا له وإيمانا به ورجاء إلى الله أن يحقق له ولكل من يكافح للوصول إلى أهدافه الشريفة فى الحياة كل أمنياته . ومضت سنوات ولم يتغير حاله كثيرا . . ولم تتغير أيضا روحه الطيبة المتفائلة ، ولم يفقد ابتسامته الدائمة . . ولولا حفلات الترفيه عن الجنود التى كانت تقام فى المعسكرات وقتها قبل وبعد حرب أكتوبر ؛ لعجز عن أن يسد رمقه .

ثم سافر إلى العمل فى الخارج ، وعاد بعد بضعة سنوات حاملا معه نفس الابتسامة ، فاشترى لنفسه مسكنا وسيارة . . واعترفت به

الإذاعة والتليفزيون . . وتخصص فى التلحين المسرحى . . وانهالت عليـــه عـــروض تلحين المسرحيـــات الجديـــدة وإعـــداد موسيقاهـــا التصويرية؛ فاستقرت أحواله ، وإن لم يعرف الثراء بمعناه المعروف .

وقابلته منذ سنوات فى أحد المسارح التى تعرض مسرحية جادة أعد موسيقاها . . فوجدته فى انتظارى على باب المسرح مبتسما . . متفائلا ، مقبلا على الحياة ، لم يتغير فى ملامحه شىء ، كأنما قد حذف من الزمن عشرين عاما حافلة بالمعاناة والكفاح والشقاء.

وتذكرت وأنا أصافحه عبارته الموحية فى بيت صديقى منذ سنوات بعيدة . . (سيأتى كل شىء فى حينه) . . وتذكرت عوده القديم الرخيص ، وسعدت بمجىء الأشياء إليه بعد طول انتظار ، وبغير ان يفقد روحه أو مبادئه خلال رحلة العناء ، أو خلال ما أسماه الكاتب المسرحى الأمريكى أرثر ميللر « سباق الفئران » للوصول إلى الأهداف وتمنيت له مزيدا من النجاح والسعادة فى الحياة .

وكلما قرأت اسمه على لوحة من لوحات إعلانات المسارح فى الشوارع، احسست بالراحة ، لأن صديقى مازال يتقدم على الطريق ، ويسعى إلى أهدافه بخطوات ثابتة ووئيدة .

وفى نفس هذه « الشلة » كان هناك فنان شاب يعيش ظروفا مشابهة لظروف باقى أفرادها . . بل وربما كانت ظروفه أقسى من ظروفهم . . لكنه كان نمطا آخر من الشخصيات ، فقد كان منفعلا دائما . . ومتأججا بالحماس والغضب والأفكار الثورية الإصلاحية للفن والحياة

. . ويجيد استخدام العبارات الضخمة والشعارات الرنانة التى يلتقطها من جلسائه من المثقفين ، ويوظفها فى أحاديثه . وكان دائم الحديث عن الكادحين والمستغلين ، والعهر السياسى والفنى والاجتماعى . . وكثير الانتقاد لتجار الفن والسياسة والإعلام ويصب عليهم جام غضبه . . ويسخر ممن يخونون مبادئهم ، جريا وراء المال أو الشهرة . . وممن يبيعون فنهم للسكارى فى الملاهى الليلية ، ويقبلون النقوط بلا حياء منهم ، كأنهم من راقصات الدرجة الثالثة ، ويحلم باليوم الذى تعتدل فيه الموازين ؛ لتخفض هؤلاء « الخونة » ، وترفع أصحاب المبادىء والمثاليات والفن الصادق مثله .

وكان متحدثا بارعا يخلب لب مستمعيه ، لكن « شيئا » لا أعرف كنهه كان يقف بينى وبينه دائما ، فلم أستشعر يوما صدقه . . ولم أرغب فى الاقتراب منه ، أو اعتباره صديقا لى ، وكان يشاركنى هذا النفور الباطنى منه جارسون المقهى الأريب فقد كان يعانى معه معاناة مضاعفة عند استقضاء ثمن مشروباته ومشروبات ضيوفه الذين يأتى كل ليلةبمجموعة مختلفة منهم إلى المقهى ، لكى « يخطب » فيهم عن أفكاره ومبادئه ، كأنه مرشح دائم فى انتخابات أبدية ، لا يأتى يوم التصويت فيها أبداً .

وكاد ذات مرة أن يحرجه ـ وهو « يخطب » فى ضيوفه ـ بالامتناع عن الاستجابة لما طلبه من مشروبات ، إلا إذا دفع الحساب القديم . . لولا أن رجوته ألا يحرجه ، وأقرضته خمسة جنيهات ـ وكانت مبلغا كبيرا فى

ذلك الوقت ـ لكى يفى بالتزاماته تجاه صاحب المقهى ويردها لى حين يدفع الفنان الثورى الملتهب حسابه المتأخر . ولم يعلم الفنان الثورى بهذه القصة حتى الآن ، ولو عرف ؛ لما اهتزت شعرة فى رأسه . . فمن طبعه ألا يعترف لأحد بفضل عليه ، ولا بمجاملة . . وظل كما هو يكافح لإثبات ذاته، ويخطب بانفعال عجيب فى حفلات النقابات المهنية ، إلى أن وقعت حرب أكتوبر ، ولمع نجمه بعض الشىء فى الحفلات الوطنية التى أقيمت وقتها . . ثم انتهت الحرب وتوقفت الحفلات . . وخبا نجمه مرة أخرى ، لكنه لم يدع فرصته تفلت من يده . . فبعد قليل ظهر فجأة فى الملاهى الليلية التى كان ينتقد بعنف وقسوة كل من يشارك فى عروضها . . ولم يعدم وسيلة لتبرير هذا التناقض الفاضح ، فقال لمن بقى له من أصدقاء مرحلة الكفاح أنه قد قرر أن يُسمع السكارى صوت الوطن ! ، وأن يبدأ بترقية الفن من المستنقعات الليلية ! .

ولم يصدقه أحد بالطبع . . . ولا كان يعنيه أن يصدقه أحد . . فلقد جاءته أخيراً الفرصة التى كان ينتظرها ، لينتشل نفسه من الفقر والحاجة، ولتذهب كل الأفكار والمبادىء إلى الجحيم ، وراح يتنقل من ملهى إلى ملهى ، ويقبل « النقوط » التى طالما عاب على الآخرين امتهان أنفسهم وفنهم بقبوله ، وجمع منه ثروة كبيرة فى فترة قياسية ، وروى لى آخر من صمد معه من أصدقاء الزمن القديم قبل أن يتنكر له الفنان الثائر هو أيضا ، أنه دخل عليه غرفة نومه ظهر أحد الأيام فى بداية

هذه المرحلة، فرأى صديقه قد غطى كل سريره برزم النقود التى تجمعت لديه لأول مرة ، ونام فوقها ، واضعاً ساقا على ساق ، وذراعيه تحت رأسه وهو يتأمل السقف ، كأنما يقول لنفسه : أخيرا جاءت هذه النقود ، التى طالما حلمت بها وتمنيتها !

وأبحرت بعد ذلك سفينته فى بحر الثراء حتى المياه العميقة . . وظهر فجأة بعد طول انقطاع فى المقهى الذى طالما سهر فيه لياليه مع شلة «الحساب بكره» من الفنانين المكافحين . . فجاء راكبا سيارة فارهة . . ومرتديا سلسلة ذهبية ثمينة ، وبدلا من أن يحس الخجل لتناقض حاله مع أفكاره السابقة ، بدا مع الجميع عدوانيا ، بل ومتشفياً فى حرمانهم وفقرهم بلا سبب مفهوم . . أو كأنما يصفى حسابا قديما مع أشخاص اكتشف بعد أن تغير حاله أنه يستطيع الآن أن يصادمهم بغير أن يخشاهم ، واصطحب بعض أفراد الشلة المحرومة إلى سيارته ، واستعرض أمامهم إمكانياتها التكنولوجية الحديثة، ثم أدار محرك سيارته، وانطلق بعيدا عنهم . ولم أفهم سر هذه الروح العدوانية التى تعامل بها مع كل - أو معظم - من عرفوه خلال مرحلة الكفاح فى حياته، لكنى تصورت أنه يحاول أن يبدأ الآخرين بالهجوم ، قبل أن يهاجموه ، ويتهموه بخيانة كل ما كان يدعيه من مبادىء وأفكار .

وأصبح يطل على الشلة من حين إلى آخر . . فيجلس بينهم متعاظما متكبرا ، يتحدث حديثا استفزازيا بعشرات الألوف ومئاتها ، وسط مجموعة من الفنانين والمثقفين، لا يهمهم حديث الأرقام ، ولا يشغل

فكرهم . . أو يتحدث عن الشقة الفاخرة التى اشتراها أو باعها ، أو عن مشروعاته الجديدة التى تتكلف الملايين ... وأذهلنى منه أنه وقد قاسى ما قاسى من حرمان . . لم يرق قلبه لأحد من زملائه السابقين المكافحين ، ولم يخطىء مرة فيدعو أحدهم للعشاء على حسابه، ولم يساعد أحداً منهم بقرض أو بهبة ، بل أصبح - وهو ثرى - ضيفا عليهم، يدعونه بقروشهم القليلة إلى فنجان القهوة ، فيتقبل الدعوة متعاظما ! .

وبعد قليل . . انقطعت صلته نهائيا بهذه الشلة وبكل رفاق سهرات المقهى القديم . . واجتث جذوره من هذا الوسط البائس نهائيا، ليغرسها فى وسط جديد، طالما هاجمه ، واتهم أهله بالزيف والجهل الاستغلال .

ورأيته ذات مرة قرب الفجر يقود سيارته الفارهة وحيدا ، ويتجول بها فى الشوارع الخالية بلا هدف . . فلفتُّ نظر صديقى - الذى يركب معى فى سيارتى - إليه ، وقلت له : ماذا يساوى الثراء حين لا يجد الانسان أصدقاء حقيقيين يرتاح إليهم ، ويرتاحون إليه و يأنسون به ، ويستطيع بعد أن ينهى عمله أن يجلس ساعة صفاء معهم وهو آمن على مشاعره بينهم . . ولا يساوره أدنى شك فى احترامهم وحبهم له ؟ ! . وتذكرت ماقاله الأديب الأمريكى آرثر ميللر فى مسرحيته الجميلة «الثمن» عن سباق الفئران، حين شرحه « والتر » الذى تخلى عن أسرته وأبيه العجوز وشقيقه الوحيد ، لكى يحقق طموحه فى الحياة ، : « تبدأ الأمور بأن تريد لنفسك أن تكون الأفضل والأحسن ؛ وتندفع لتحقيق ذلك ، وتكتشف

خلاله أنك قد طردت كل شىء آخر من حياتك ، حتى الناس ، وأصبحت آلة لسحب النقود من جيوب الآخرين . . ثم تكتشف بعد ضياع زهرة العمر أنك قد أضعت كل شىء فى سبيل الوصول إلى حياة غير حقيقية . . وأن كل دوافعك إلى ذلك كانت دوافع خائبة ، لا تستحق ما خسرته لكى تصل إلى ما وصلت إليه ! » .

ولقد كان الثمن الذى دفعه والتر من سعادته غاليا . . . فقد خسر أبويه اللذين رحلا عن الحياة غاضبين عليه ، وفقد حب شقيقه الوحيد ، الذى ترك له عبء الأسرة كاملا . . ثم خسر فيما بعد حياته اللامعة التى باع كل شىء من أجلها ، وطلق زوجته ، وهجره ابنه ، وبقى وحيدا معذبا يستجدى عفو شقيقه البسيط وصداقته . . فلا يرق قلبه له ، ولا يعفو عنه ! .

وكذلك يدفع « الثمن » كل من يشغله هذا السباق الضارى عن مبادئه ومثالياته ، من سلام نفسه وراحة قلبه . . وسعادته الحقيقية . «ودورى يادنيا » كما تشائين . . وارفعى من تشائين . . واخفضى من تشائين ، لكنك أبداً لن تغيرى من الحقائق ، ولا من المثاليات الصحيحة أو الأفكار السليمة ، التى تؤكد لنا دائما ان الاهداف المشروعة فى الحياة لابد من السعى إليها بوسائل شريفة ، وأن ما نحققه بغير هذه الوسائل لا يحقق لنا أبداً سلام النفس ولا راحة القلب . . ولاحب الآخرين . . ولا احترامهم ! .

.. سرقونى و « باين » فى عينيهم !

الأغنية القديمة للموسيقار عبد الوهاب ، كانت تقول كلماتها :

حسدونى وباين فى عينيهم

فين عطفك وحنانك بيَّا

أما الأغنية « الجديدة » التى أردت أن أؤلفها أنا وأنشد كلماتها وأنا واقف على رصيف مقهى جورج سانك بباريس فى الصيف قبل الماضى ، فلقد كان ينبغى أن تقول كلماتها :

سرقونى وباين فى عينيهم .

فين الشرطة . . فين البوليسيا !

لكنى لم أنشدها ، ولم أترنّم بكلماتها ، لا واقفا ولا جالسا والحمد لله . . وإنما استدعيت على الفور مخزونى القديم من القَدَرية والرضا بكل ما تأتى به أمواج الحياة ، والتسليم بإرادة الله سبحانه فى كل شىء ، فإذا بسلام عجيب يحلّ علىّ . وكأن من تعرض لسرقة كل أو معظم نقوده ذلك المساء شخص آخر لا أعرفه ، وإذا بى أجد نفسى بعد دقائق

مشغولاً بتهوين ما حدث على الصديقين اللذين كانا يجالسانى فى المقهى حين وقع الحدث ، مذكِّرا إياهما بأنه « قدَّر الله ، وكما شاء فعل ! » .

أما كيف حدث ما حدث من البداية . . فلست أعرف على وجه اليقين . كل ما أذكره أنه قبل أن أسافر إلى باريس ذلك الصيف ، كانت تنتابنى رغبة عارمة فى أن تكون رحلتى إليها هذه المرة . . رحلة غير عادية فى كل شىء . . فى فترتها التى انتويت لأول مرة أن تطول عن الأسابيع الثلاثة ، التى لا أسمح لنفسى بالغياب أكثر منها عن العمل منذ ثلاثين عاما ، وفى كم الراحة والبهجة والتعويض الذى أردت أن أعوض به عناء عام طويل من العمل المضنى ، وأذيب به رواسب الاكتئاب التى تتجمع فى الخفاء فى أعماقى من معايشة هموم الآخرين والاقتراب منها خلال عام كامل . وتحقيقا لهذه الرغبة العارمة فى أن تكون رحلتى هذه أمتع وأبهج رحلاتى طوال ربع قرن ، رجعت صباح يوم السفر من باب مسكنى ، بعد أن ودَّعت أسرتى ، ودخلت غرفة نومى من جديد ، وأضفت إلى مظروف النقود التى خصصتها للرحلة . . مبلغا إضافيا ، واعدًا نفسى بألا أبخل عليها بشىء فى هذه الرحلة بالذات ، حاملا أكبر مبلغ حملته معى فى رحلة خارجية منذ ٢٥ عاما .

وركبت الطائرة مبتهجاً وراغباً فى الاستمتاع بكل لحظة من لحظات سفرى ، بعيدا عن عناء العمل والالتزامات ، وتذكرت وأنا جالس فى استرخاء فى مقعدى ما روته لى قبل أيام صديقة قديمة ، كانت عائدة لتوها من رحلة عمل فى أوروبا ، عن تعرضها لسرقة حقيبة غفلت عنها

للحظات وهى فى مطار بروكسل ، ثم التفتت . . فإذا بها قد اختفت فجأة وبها كل نقودها وأوراقها المهمة . وتذكرت كيف تألمتُ لما أصاب هذه الصديقة ، وكيف واسيتها فيه . . و « تنبهت » فجأة وهى تحكى لى عما جرى لها أننى ـ ولحسن الحظ ـ لم أتعرض أبدا لسرقة نقودى خلال سفرى للخارج طوال ٢٥ عاما ، على كثرة ما سمعت من حوادث مماثلة . . وتخيلت حالى لو حدث لى هذا الحادث المؤسف وأنا فى الغربة ، وما سوف أتعرض له من متاعب بسببه . . فأجفلت من تصوره « وهنَّأت نفسى » على حرصى الدائم على تفقد نقودى خلال السفر ، والتأكد من وجودها كل فترة .

ثم هبطت الطائرة فى مطار باريس . . ووجدت الأحباء الثلاثة «محمود » و « سيد» و « خالد » فى انتظارى به كعادتهم كل سنة ، متعهم الله جميعا بالصحة والسعادة والتوفيق ، وقطعنا الطريق من المطار إلى وسط المدينة ونحن فى نشوة اللقاء بين إخوان الصفاء بعد طول غياب ، وتعالت ضحكاتنا طوال الطريق ، حتى بلغت السيارة مسكن صديقى سيد الذى سأقيم به خلال الأجازة . وودعنا صديقنا محمودًا راجعًا إلى عمله ، بعد أن اتحفنا كعادته « بكارتونة » كبيرة من طرائف الفاكهة التى يستوردها من شتى أنحاء العالم .

وصعدت إلى المسكن ، فاغتسلت وشربت الشاى ، ثم استسلمت

للراحة ومشاهدة التليفزيون ، وفى المساء غادرت المسكن مع سيد وخالد لتناول العشاء فى مطعم قريب .

وواصلنا الحديث بلا انقطاع ، حتى تجاوزت الساعة العاشرة ، وتهيأنا للعودة استعدادًا لبدء برامج الرحلة غير العادية ، فإذا بفكرة طارئة تغير خطتى . . وتساءلت فجأة : كيف أكون فى باريس . . ولا أتمشى فى شارع الشانزليزية الشهير الذى يتجمع فيه كل سياح العالم؟ . . وكيف لا أجلس لبعض الوقت فى مقهى « جورج سانك » الذى يصبح محلى المختار حين أكون فى عاصمة النور ؟. وأبديت رغبتى فى ذلك للصديقين ، فحاول سيد إثنائى عن هذه الرغبة، مفضِّلا تأجيلها للغد، حتى أستريح وأسترد نشاطى وحيويتى بعد عناء السفر ، لكن هيهات أن يغنى حذر من قدر . . فلقد ألححت عليه بالذهاب ولو لمدة ساعة فقط إلى المقهى ، واستجاب لرغبتى حياءً ومجاملةً . واتجهنا بالسيارة إلى الشانزليزيه . . وتمشينا على رصيفه الشهير ، الذى لابد أن تلمح فيه وجهًا مألوفا لك ، أو شخصا تعرفه ، كما لابد أن تلتقط أذناك خلال سيرك فيه حديثا باللغة العربية بشتى لهجاتها المختلفة .

وبلغنا مقهاى العتيد ، وأسرعنا باحتلال مقاعدنا على رصيفه ، مترقبا فنجان القهوة الإكسبريسو الشهير . وتواصل الحديث بيننا ممتعا ومبهجا ، ومن حين لآخر أتذكر حرصى القديم خلال السفر ، فأمد يدى وأتحسس مظروف النقود الذى أضعه فى جيب الجاكيت الداخلى مع جواز السفر . واستغرقنا الحديث . . فنسيت رغبتى فى النوم . .

ونسى سيد اعتراضه السابق ، واسترد حيويته ورغبته فى السهر ، وشعرت بحرارة الجو ورطوبته فى أغسطس ، فخلعت الجاكيت ، وألبسته للمقعد الذى أجلس عليه ، وواصلنا الحديث حتى تجاوز الوقت منتصف الليل ، ثم نهضنا لنواصل سيرنا على الرصيف لبعض الوقت ، وابتعدنا عن المقهى خطوات ، فأردت أن أطمئن - مبالغة فى الحرص - على وجود مظروف النقود فى جيبى ، وتحسسته كعادتى ؛ فإذا بى لا أجده ! .

أين اختفى ؟ . . هل سقط على الأرض خلال ارتدائى للجاكيت ، أم امتدت إليه يد آثمة ؟ لا أعرف ! . هرول صديقى سيد راجعا إلى المقهى ، ولحقت به بعد لحظات ، فإذا بالجارسون الذى كان يخدمنا يستقبلنا بنظرة محيرَة تدعو للريبة والشك فى أنه يعرف بما حدث بشكل أو بآخر وإذا به يبادرنا بالسؤال : هل وقع منكم شىء ؟ نعم ، وقع منا شىء ثمين . . لكن أين هو ؟ لا أحد يعرف . . نفى الجارسون أنه شاهد شيئا ملقى على الأرض . . ونفى رجل وزوجته - برتغاليان - كانا يجلسان وراءنا أنهما شاهدا شيئا يسقط منا . . أو أحداً يلتقط شيئا من الأرض . وتبدت لنا الحقيقة واضحة . . لقد ضاع أو سرق مظروف النقود التى أعددتها لهذه الرحلة التى أردتها أن تكون غير عادية ولا مسبوقة فى كل رحلاتى ، ولم تنجح جهود سيد وتحرياته فى معرفة مصيره . . ولم تفد بشىء شكوكه فى شخصين لهما ملامح شرقية ، كانا يجلسان خلفنا مباشرة ، وغادرا المقهى مسرعين ، ولا شكوكه فى تواطؤ الجارسون

الفرنسى الوغد معهما، أو على الأقل فى تستره عليهما، خوفا من إيذائهما له، وهما لابد من معتادى الإجرام .

لم يفلح شىء فى إعادة اللبن المسكوب من الأرض، ولم يعد يفيد التحسر عليه . . وازداد تأثر « سيد » بما حدث وانفعاله له، وهو إنسان عاطفى بطبعه، فإذا بحال من السكينة العجيبة تنزل علىَّ فجأة، وإذا بى أجد نفسى مسئولا بعد لحظات عن تهوين ما حدث عليه ، مؤكدًا له أن ما حدث معى كان مسطورا لى فى اللوح المحفوظ من قبل أن أركب الطائرة قادما إلى باريس . وإنه كان قدراً مقدورا أن أجىء إلى هذا المكان، وفى هذه الساعة بالتحديد، لكى « ينشل » منى شخص ما هذا المبلغ، ومعه أيضا المبلغ الإضافى الذى رجعت من باب مسكنى لكى أضيفه إلى نقود الرحلة المقدر لها أن تضيع. وأردت أن أؤكد له وجهة نظرى، فقلت له ونحن عائدين إلى البيت : ألم ترَ أنك حاولت قدر جهدك أن تثنينى عن المجىء إلى الشانزليزيه هذا المساء بكل السبل ، وأننى أنا الذى أصررت على المجىء ووافقتنى حرجاً ومجاملة ؟، ألا يشير لك ذلك إلى أنه كان مقدرا علىَّ أن أجىء إلى ذلك المكان ، لكى تنفذ إرادة الله فى موعدها ومكانها المحتومين ؟ .

ورجعنا إلى البيت صامتين . وجلسنا نشاهد التليفزيون بلا حماس، وهو مازال متأثرا. . أما أنا، فلا أستطيع أن أزعم أننى لم أكن متأثرا بما حدث ... فلقد كنت كذلك فعلا، ولكن بلا مبالغة، ولا حسرة شديدة على ماضاع ، لأنه قد استقر فى يقينى أن ما كان مقدورا علىَّ أن أفقده،

لم أكن لأستطيع أن أحتفظ به، ولو كنت قد حفظته فى بروج مشيدة، وأن ما كان مقدروا لى أن احتفظ به ما كان الإنس والجن يستطيعون سلبه منى، ولو طوحت به فى الهواء . وقد سلَّمت بعد لحظات الضيق والانزعاج الأولى بأن من وهب لى هذا المبلغ فضلاً منه وكرما، مالك الملك سبحانه، قد أراد أن يختبرنى باسترداده منى، فهل يلوم « عاقل » «مالكا » إذا استرد عطيته من أحد ؟ ! .

إنها أقدار مقدورة « فمن رضى؛ فله الرضا، ومن سخط، فله السخط » كما يقول رسولنا الكريم فى مضمون حديثه الشريف . . وحاشاى أن أكون من الساخطين، حتى ولو تبددت كل خططى وأحلامى للإجازة غير المسبوقة التى أردت الاستمتاع بها . . وكما نسعد بالانتصارات ياصديقى، علينا أن نتقبل الخسائر بروح رياضية ، «وبقدر الحظوظ . . قد تأتى الكوارث فى بعض الأحيان » كما قال ذات يوم نابليون بونابرت، مطالباً كل إنسان بأن يوطن نفسه على أن يلقى من سوء الحظ قدراً يعادل ما ناله من إقبال الحياة والحظ عليه .

أما شاعر الهند العظيم طاغور ، فلقد تذكرته حين نهضت فى الصباح، وكأننى شخص آخر، غير ذلك الشخص الذى فقد كل نقوده الليلة الماضية، وتذكرته أيضا طوال أيام هذه الرحلة العجيبة حين قال : إن أبلغ درس يتعلمه الإنسان ،هو أنه ليس هناك ألم لا يستطيع أن يتخلص منه، أو أن يحيله فى نفسه إلى أنس وسرور ! .

فوالله الذى لا إله سواه، إنى ما استمتعت برحلة خارجية لى منذ

عرفت السفر خارج مصر منذ ٢٥ عاما . كما استمتعت بهذه الرحلة التى بدأت بأن فقدت كل - أو معظم - نقودى فى أول أيامها ، ولا أعرف حتى الآن هل حدث هذا بدافع التعويض النفسى اللا إرادى من جانبى . . أم لأننى قد حسبت « حسبتى » جيدا ، وسلمت بأن ما فات قد فات ، ولا يجوز أن أفسد بقية رحلتى به . . أم لأنه تعويض السماء لى . . أن تكون هذه الرحلة بالذات هى أمتع الرحلات ، وأن يكون كل يوم من أيامها بهجة خالصة . . ومتعة ثقافية وروحية متجددة .

لا أدرى على وجه التحديد . كل ما أدريه هو أننى قد نسيت عامداً متعمدا ما حدث لى فى أول أيام الرحلة . وطلبت من صديقى « سيد » أن يتكتمه عن صديقنا المشترك « محمود » ، فلم يعلم به إلا بالصدفة ، بعد عام من وقوعه ، وعاتبنى فى ذلك عتاب الأصدقاء ، أما أسرتى وباقى أصدقائى ، فلعلهم سوف يعرفون بهذه القصة إذا قرأوا هذا المقال . ومنطقى فى ذلك هو : ما معنى أن نزعج أحباءنا وأعزاءنا بما ألمّ بنا من ملمّات عارضة ، ونحن لن نحقق بإبلاغهم شيئاً سوى تكديرهم ؟! ، ولماذا لا يسمعنا الآخرون إلا شاكين مما نالنا من سوء حظ ، فى حين نتكتم عنهم كل ما يصيبنا من خير ، ومن إقبال الحياة والحظ علينا ؟! ، كأننا نبخل عليهم بمشاركتنا أفراحنا . . وندعوهم فقط لمشاركتنا أتراحنا .

إننى أضيق دائما بهؤلاء الذين يسارعون « بتوزيع » همومهم على جميع من حولهم من اللحظة الأولى ، ويتكتمون عنهم - فى نفس الوقت - كل

مايصيبهم من خير وإقبال وتوفيق فى الحياة، لينفردوا بالابتهاج بها وحدهم!. إنها قسمة غير عادلة أن تكون سعادتك لك وحدك ، وتعاستك على المشاع لكل من حولك .

لهذا . . تكتمت ما حدث لى ذلك المساء بمقهى « جورج سانك بباريس » منذ عام وبضعة شهور . . إلى أن « نسيت » فجاة حرصى على كتمانه منذ أيام ووجدت نفسى أرويه لك . .

فعفوا لذلك . . وشكراً .

الذكرى البعيدة

سُئل الفيلسوف البريطانى برتراند راسل عن سر حيويته وسعادته فى شيخوخته؛ فأجاب سائله :

ـ إن نصيحتى الأولى لك لكى تعيش سعيداً فى شيخوختك، هى أن تحسن اختيار أجدادك ! . منبهاً بهذه الإجابة الساخرة إلى أهمية العوامل الوراثية فى تكوين جسم الإنسان وسلامة أعضائه، وتشكيل مزاجه النفسى ، ومشيراً أيضاً إلى أن ثلاثة من أجداده الأربعة المباشرين قد استمتعوا بحيويتهم وصحتهم بعد سن الثمانين .

ولقد تذكرت هذه العبارة الساخرة ، حين حاورتنى مؤخراً زميلة صحفية تعد كتاباً للنشر عن حياة بعض المشتغلين بالأدب والكتابة ، فقد سألتنى عن حياتى ومؤثراتها فقفزت هذه العبارة إلى ذهنى، ووجدتنى أجيبها : بأنه لا يكفى لكى يعيش الإنسان سعيداً وصحيح الجسم العقل والنفس أن « يُحسن » فقط اختيار أجداده الذين ستنتقل إليه منهم كثير من السمات البيولوجية والنفسية، وإنما يجب أيضا أن «يختار » لنفسه طفولة سعيدة ، لأن بعض مؤثرات هذه الطفولة سوف

تصاحبه معظم مراحل حياته فيما بعد . . وسوف تؤثر تأثيراً خطيراً على تكوينه النفسى، وقدرته على التفاعل مع الحياة والاستجابة لدواعى الحزن والسرور فيها . . فالذين يحظون بطفولة سعيدة آمنة يكون استعدادهم النفسى للاستجابة لدواعى السرور والسعادة أكبر منه لدى هؤلاء الذين عاشوا طفولة تعيسة أو شقية .

وأصحاب الحظ السعيد الذين استمتعوا بطفولة طبيعية آمنة بين أبوين متحابين ومتعاطفين يكون استعدادهم للإيمان بخيرية الحياة والاطمئنان للمستقبل والبشر أكبر منه لدى من عاشوا طفولة خائفة متوجسة دائماً مما قد يأتى به الغد ، بل إنه حتى أحداث الطفولة التى يشهدها الطفل بعيداً عن دائرة الأسرة والخلافات العائلية قد تترك على شخصيته وتكوينه النفسى بصمات غائرة يتعذر محوها أو تفادى آثارها السلبية عليه معظم مراحل العمر .

وتذكرت فجأة وأنا أتحدث مع هذه الزميلة الصحفية حادثة بعيدة وقعت لى فى طفولتى أعتقدً أنه قد كان لها أبلغ الأثر على طفولتى ومدى قدرتى على الاستمتاع بها ، بل وعلى مزاجى النفسى فيما تلا ذلك من مراحل . والعجيب حقا اننى حين حدثت زميلتى الصحفية عن هذه الحادثة كانت قد مضت سنوات طويلة طويلة لم أتذكرها خلالها، مرة واحدة ، لكن ذلك لايغير من أهميتها ومؤثراتها النفسية شيئاً ، بل لعله يضاعف منها ، لأن العقل الواعى حين يضيق بخبرة مؤلمة ، فإنه يضغط عليها، فتنزل إلى أغوار عقله الباطن وتستقر فيه . . ويتوهم الإنسان

خطأ أنه قد نسيها، لكنها فى الحقيقة كامنة فى أعماقه، تبث مؤثراتها غير المحسوسة على تكوينه النفسى وشخصيته ورؤيته للحياة .

أما بطل هذه الحادثة البعيدة، فقد كان طفلاً مماثلاً لى فى العمر من رفاق الشارع ، وكان شارعنا فى مدينتى الصغيرة المطلة على النيل فى الوجه البحرى ، شارعاً ديمقراطيا، لا يعترف بالفوارق الاجتماعية والطبقية ، فيتجاور فى ألعاب الطفولة فيه أبناء التجار والملاك والموظفين مع أبناء البسطاء من ذوى الحرف والباعة الجائلين، بل لعل أبناء الموظفين والتجار كانوا ينطوون فى أعماقهم على بعض الاحساس بالحرمان تجاه أبناء أهل الحرف والباعة البسطاء هؤلاء، لسبب غريب . . هو أن أبناء البسطاء يستمتعون بحياة «حرة» كريمة، لا تعرف « ذل » المدارس، وإرهاب المدرسين، وعذاب النوم الإجبارى المبكر، استعدادًا للذهاب إلى المدرسة فى اليوم التالى . . كما يستمتع هؤلاء « الأحرار » بالسهر فى الشارع إلى وقت متأخر، وينهضون من نومهم حين يحلو لهم ذلك ، ويقضون فترة الصباح فى اللعب الممتع اللذيذ بالشارع ونحن محبوسون فى « زنازين » مدرسية، يعد علينا فيها المدرسون أنفاسنا .

ومن عجب أيضاً أن بعض أبناء البسطاء هؤلاء، الذين كان أهلهم يدفعونهم أحياناً للعمل فى سن مبكرة ، كانوا يشعرون تجاهنا نحن تلامذة المدارس بشىء عجيب من «الاستعلاء »، مبرره عندهم هو أنهم « رجال» يعملون بأيديهم، ويعتمدون فى حياتهم على ما يكسبون بعرق جبينهم، فى حين نرضى نحن بحياة ذليلة، يتحكم فيها المدرسون،

ونعتمد فى حياتنا على ما يعطيه آباؤنا لنا من مصروف ! . وكان من الشائع فى طفولتنا انه إذا تلاحى طفلان، أحدهما من « عبيد » المدارس، والآخر من « الأحرار » ذوى الأيدى الخشنة الذين يعملون بالحرف، أن يتدخل إلى جانب صاحب اليد الخشنة زميل له، فيناصره ويقول له مهونا من شأن خصمه :

ـ لا تأبه له . . إنه تلميذ صغير تنفق عليه أمه ! .

ومع أنه لم يكن من أبناء المدارس فى شارعنا تلميذ واحد تنفق عليه أمه، لأن أمهاتهم جميعاً من ربات البيوت اللاتى يعشن مع أبنائهن فى كنف أزواج قادرين، إلا أن هؤلاء الأحرار كانوا لا يشيرون إلى أحد من أبناء المدارس عند الغضب، إلا بهذا التعبير الجارح، بقصد الإهانة، أو بقصد تعويض الإحساس بالنقص تجاههم .

وربما لكل هذه العوامل المختلفة . . كان ذلك الطفل الفقير «رفعت» يحاول دائماً إبهارى بقدراته ومواهبه التى لابد أن تفوق بالضرورة قدراتى ومواهبى، باعتبارى من أبناء المدارس الخائبين ! ، فكان لا يمل أبدا من الرغبة فى استعراض قدراته أمامى وأمام أطفال الشارع . . وعينه مركزة علىَّ، تنتظر منى كلمة الإعجاب والإشادة . . فإذا كان المجال مجال سباق فى الجرى، اندفع كالصاروخ؛ فيسبقنا جميعاً، ثم ينتظرنى حتى أصل إليه لاهثاً ويسألنى مبتهجاً : مارأيك ؟ . . ألم تر أننى قد سبقت كل تلاميذ المدارس الخائبين ؟ .

وإذا كان المجال هو لعب الكرة ، فهو أكثرنا جهداً وحركة وترقيصاً للاعبين . . وإحداثاً للإصابات بهم، بالرغم من أنه يلعب الكرة حافى القدمين، فى حين يلعب تلاميذ المدارس الخائبون من أمثالنا بأحذيتهم .

وهكذا فى كل مجالات التنافس بين الأطفال ، إلى أن جاء يوم فى صيف أحد الأعوام، وكان فيضان النيل قبل بناء السد العالى يأتى كل صيف؛ فتعلو مياه النهر حتى يخيل إلينا أنها توشك على أن تفيض من جوانبه وتغرق مدينتنا الصغيرة الواقعة على أحد فرعيه بالدلتا .

وفى هذه الفترة كان هواة السباحة وهواة التنزه بالقوارب الصغيرة الجميلة فى النيل عند الأصيل يتوقفون عن ممارسة هواياتهم، لخطورتها على حياتهم . . . لكن رفعت كان من هواة تحدى المخاطر وعدم التسليم بالمحظورات . . وهكذا فوجئت بأحد رفاق الطفولة يبلغنى بأن الصديق المشاغب يسبح فى النيل مع ثلاثة من الأطفال الآخرين، أقنعهم بتحدى فيضان النهر .

وذهبت مع صديقى إلى شاطىء النهر لإقناعه بالخروج من النيل، خوفا على حياته. وليتنى ماذهبت. . إذ ماكدت أقترب من شاطىء النيل الذى يسبح بالقرب منه ورآنى، حتى تملكته الرغبة فى إبهارى، وإشعارى بعجزى عن مجاراته فى كل مجال، وبدلا من أن يظل ملتزما بالسباحة فى المياه الضحلة القريبة من اليابسة ـ كما كان يفعل قبل اقترابى من الشاطىء ـ إذا به يدخل فى العمق الخطير، مبتعداً عن رفاقه، وناظراً إلىَّ نفس النظرة التى تقول لى :

- أرأيت قدرتى على تحدى الأخطار ؟ .

فتولانى الرعب . . وصحت منادياً عليه، ومطالباً إياه بالعودة إلى الأمان والخروج للشاطىء، لكن هيهات أن يسمع أو يستجيب . . فقد كان المحظور قد وقع وقضى الأمر، ورأيته يغطس فى الماء للحظات ، ثم يقب مرة أخرى، نافخا شدقيه بالهواء ليمنع تسرب الماء إلى فمه ، وناظراً هذه المرة للسماء، وليس إلىَّ، ثم غطس مرة ثانية، وقَبَّ على نفس الحال . . ثم غطس مرة ثالثة ولم يظهر له بعدها أثر فى صفحة النهر، سوى بعض دوائر الماء، التى لم تلبث أن اختفت بعد لحظات، ورجعت صفحة النهر إلى ما كانت عليه ! .

هل أدركت أنا فى هذه اللحظة أن صديق طفولتى قد غرق؛ وانطوت صفحته مع الحياة إلى الأبد ؟ .

لا أستطيع الجزم بذلك . . فلقد عجزت بعقل الطفل عن تخيل إمكانية طى صفحة إنسان مع الحياة للأبد فى مثل هذه اللحظات الخاطفة، فواصلت النداء عليه متمسكاً بالأمل، ومتوقعاً أن يعود للطفو مرة أخرى . . شاعراً بالانتصار والتفوق، كعادته كلما تحدى المخاطر .

ومضت اللحظات الثقيلة بغير أن يظهر له أثر؛ فاختلطت نداءاتنا إليه بصيحات الفزع والاستغاثة بمن حولنا من رجال يعملون بتفريغ أحد المراكب النيلية . . لكن أين المغيث ؟ ، ومن يجرؤ على الغوص فى أعماق النهر السحيق لإنقاذ هذا الطفل التعيس؟! .

ووقفنا عاجزين ويائسين على شاطىء النهر لفترة من الوقت ، ثم تولانا فزع مفاجىء كأنما قد ضبطنا متلبسين بارتكاب جريمة لا نعرف كنهها ، وهرولنا مبتعدين عن النهر ، يلاحقنا الإحساس المرير بالإثم والمسئولية . . وأعتقد ان هذه اللحظة قد تركت فى نفسى وحياتى أثرا غائراً لم يمح أبداً بعد ذلك . . . فلقد كان التصرف الوحيد المنطقى ، بعد أن وقع ما وقع ، ولم يكن لأحد حيلة فيه ، هو أن نتوجه إلى أسرة الطفل التعيس ، ونبلغها بما حدث ، لكننا لم نفعل ذلك ، لأننا شعرنا شعورا غامضاً بالذنب تجاه مصير هذا الطفل ، ودفعنا الإحسا س بالذنب إلى تكتم ما حدث، ونفى أية صلة لنا به ، كأننا كنا نحن الذين أغريناه بالسباحة فى النهر العميق، وساهمنا فى تحديد مصيره . وبدلاً من العودة إلى البيت ، وجدت نفسى أمضى الساعات الطويلة مبتعدا عن بيتى وأسرتى والحى السكنى الذى نعيش فيه ، ثم أرجع إلى البيت آخر اليوم ، مصفر الوجه ، متعباً مريضا . وتسألنى أمى عمّا بى ، فأنفى أننى أعانى من أى مرض . وتمر على ساعات الليل الطويلة كأنها دهر، وتسألنى أمى فى صباح اليوم التالى عما كان يدفعنى للاستيقاظ مفزوعاً من نومى عدة مرات وصارخاً ، فلا أعى مما تقول شيئا ، ولا أتذكر صرخاتى فى الليل ، أو صحوى مرتعبا عدة مرات .

وأرقب والد صديقى يسأل كل الأطفال الذين يعرفهم عن مصير ابنه ؛ فيتكثف داخلى الإحساس الثقيل بالذنب « والجريمة » ، وأتفادى

بمعجزة أن تقع عينا والده علىَّ لكى لا يسألنى عن ابنه ، وأتوارى من طريقه كلما رأيته عن بعد .

ويكرر على أبى السؤال عما ألم بى فى اليومين الماضيين ، ويسألنى برفق عما إذا كنت قد شاهدت غرق هذا الطفل بالنهر ؛ فأنفى له ذلك بشدة ، وملامح وجهى المتضرج بالاحمرار تفضحنى ، وينظر إلىَّ فى تفهم وإشفاق وتسامح مع كذبى المفضوح ، ثم يصطحبنى فى المساء إلى طبيب الأسرة ، ويتبادل معه الكلام بصوت هامس للحظات ؛ فينظر إلى الطبيب باهتمام ، ويفحصنى ، ويكتب لى بعض الفيتامينات ، ويحدثنى حديثاً مبهما عن أنه لا « مسئولية » على من يشاهد حادث تصادم أو غرق ، لأنه ليس طرفا فى الجريمة . . ولا يغير وجوده فى مسرح الحادث مما جرى شيئاً ؛ فلا أستوعب مغزى حديثه فى حينه ، ولفترات طويلة بعدها أقاطع الشارع الذى يقع فيه بيت قرين الطفولة وأتحاشى أن يرانى أبوه، أو أحد إخوته . . ويلازمنى الإحساس الغامض بالذنب والإثم، فيفسد على أوقاتا ثمينة . . ويبدد بعض ـ أو معظم ـ مباهج الطفولة، وتسقط هذه الذكرى المؤلمة فى غياهب العقل الباطن، بعد أن ضاق بها العقل الواعى . . فتترسب فى الأعماق. ويبدو لى أننى قد نسيتها تماما . . لكن ظلالها على تكوينى النفسى كانت قد انحفرت فيه للأبد؛ فغامت الذكرى، وبقيت الظلال تعبر عن نفسها من حين إلى آخر . . فى استشعارى المسئولية عما لا مسئولية لى عنه فى بعض

الأحيان . . وفى الإحساس الغامض بالذنب تجاه مآسٍ لا يد لى فيها ولا جريرة .

وكأنما قد حدد هذا الحادث المؤلم فى طفولتى الكثير والكثير من سمات تكوينى النفسى، وطريقة تفاعلى مع آلام الحياة المختلفة ومؤثراتها، وأسهم أيضا فى إيمانى الدائم بأن الحياة قصيرة مهما طالت ، وبأنه من الحكمة ألا يطمئن إليها الإنسان كل الاطمئنان مهما بدت له مطمئنة ووادعة . . فهل ترانى أخطأت حين قلت للزميلة الصحفية إنه لا يكفى لكى يعيش الانسان حياة سعيدة أن « يُحسن » اختيار أجداده، وإنما لابد له أيضا من أن « يحسن » اختيار طفولته ليفوز بالأمان . . والسعادة . . والسلام فى رحلة الحياة ؟ .

نحو « المجد » !

كم كان عمرى حين أقدمت على هذه التجربة الخطيرة ؟ .

مؤكد أنه لم يكن يتجاوز الرابعة عشرة، إن لم يقل عنها . . فكيف واتتنى الجرأة إذن للإقدام عليها ؟ . أما التجربة، فهى - ولا فخر - تأليف أو الاشتراك فى تأليف كتاب وطبعه، بهدف « تثقيف » الشباب، و« إثراء » الفكر الإنسانى بثمرات عقولنا «الواعية»! . ولم لا أفعل والقلب غض . . والأحلام عريضة ولا تعرف الحدود ؟ ، ألم نقرأ بعض الكتب، فشعرنا بعد قراءتها بأننا نختلف عن غيرنا من زملائنا، إلى الحد الذى قد يسمح لنا بتوعيتهم بفكرنا ؟ ، وألسنا نقرأ على غلاف بعض كتب القراءة المدرسية أسماء ثلاثة أو أربعة مؤلفين اشتركوا فى وضع الكتاب؟ ، وألا يحمل الكتاب المفضل لدينا وقتها وهو « فصول مختارة من كتب التاريخ » أسماء أربعة مؤلفين، لا يختلفون عنا كثيرا، سوى فى أن أسماءهم « معروفة » بعض الشىء ، كطه حسين، وأحمد أمين، وإبراهيم الإبيارى، وعبد الحميد العبادى فيما أذكر ؟ . إذن فماذا ينقصنا لكى نكرر تجربتهم، ونشترك فى تأليف كتاب وطبعه ونحن أربعة من

الأصدقاء نتحدث فى الأدب . . وكلنا أو «معظمنا» له إبداعه الأدبى الخاص ؟ ، فأنا مثلا أراسل كل مجلة إقليمية تطلب مراسلين لها ، وأرسل إليها صورتى ، ورسوم استصدار البطاقة الصحفية الخاصة بها، وهى غالبا مصدر الدخل الرئيسى لهذه المجلة ، فيأتينى بالبريد خطاب خطير من إدارة المجلة يبشرنى باعتمادى مراسلا لها فى مدينة دسوق العامرة ، ومعه بطاقة صحفية ممهورة بخاتم المجلة ، أزهو بها كثيراً ، وأطلع إخوتى وأصدقائى عليها .

ثم أغرق هذه المجلة بكتاباتى وقصصى القصيرة الساذجة ، فتنشر القليل منها ، وتلقى معظمها فى سلة المهملات ، وإذا نشرت لى شيئا صدَّرته بهذه العبارة المهيبة :

للأديب الناشىء فلان الفلانى . . طالب ثانوى ! .

أما صديقى إبراهيم . . فيكتب الزجل على طريقة شاعر الشعب بيرم التونسى ، ويلقيه علينا فى الحفلات المدرسية ، كما أن له مقالا يتيما بعنوان «كيف يصل الشباب إلى السعادة والغنى ؟» نشره فى مجلة الحائط بالمدرسة، ولقى «رواجا» ملحوظا؛ فراح يعيد كتابته، ويضيف إليه، أو يحذف منه، ويعيد نشره فى كل مكان تصل إليه يده من مجلات الحائط المختلفة، إلى مجلة المدرسة المطبوعة، إلى بعض المجلات الإقليمية . ومع أننى لم أعد أذكر من وصفة صديقى هذا للوصول إلى السعادة والغنى شيئا الآن، إلا أنها لم تكن تخرج غالبا عن إطار النصائح المدرسية الشائعة فى زماننا، من نوع: من جد وجد . . ، ومن طلب

العلا؛ سهر الليالى . . إلخ ، فماذا يمنعه إذن من أن يعيد كتابة هذه «الدرة اليتيمة » ويضيف إليها الجديد ، فيصبح هو إسهامه الرئيسى فى مشروع الكتاب الجديد، مع بعض أزجاله الأخرى ؟! .

وماذا يمنع صديقنا الثالث جورج من أن « يثرى » هذا الكتاب أيضا ببعض أشعاره المماثلة وأزجاله ومختاراته من كتب القراءة ؟ . يبقى المؤلف الرابع، الذى يحتاج إليه غلاف الكتاب، كى تحتل أسماء المؤلفين سطرين متساويين على صدره، على غرار ما فعل طه حسين وزملاؤه فى كتاب « فصول مختارة » . ومادام الأمر كذلك، فلابد أن يشترك معنا محمد فى تأليف الكتاب . . صحيح أنه ليس « ملطوشا» بالشعر والأدب مثلنا ، ولا يضيع أوقات فراغه فى قراءة هذه الخزعبلات التى نقرأها . . وإنما يستثمره فيما هو أنفع وأجدى للبشرية ، وهو حلاقة رؤوس الزبائن فى صالون أبيه ، رغم محاولات الأب لإبعاده عن المهنة .

نعم، صحيح كل ذلك . . لكننا من ناحية أخرى . . لا نتصور أن نشترك فى عمل أدبى لا يشاركنا فيه صديقنا الرابع الذى تراوده أحلام الشهرة فى ميدان الحلاقة، وليس الأدب، فإن لم يكن ذا ملكه أدبية، فتكفيه طيبة قلبه وصداقته المخلصة لنا، واحتماله صابرا لخزعبلاتنا الأدبية ، ولا بأس بعد ذلك بأن نكتب له نحن بعض الشذرات الأدبية ونضع عليها اسمه ، ليس فقط وفاء بحقه علينا، وإنما أيضا . . لعل ذلك يطمئن بعض خواطر أبيه تجاهه ، ويؤكد له أن « الولد » يمضى قدما فى طريق العلم، ولن يخيب آماله فيه ! ، كما أننا ـ من ناحية أخرى

ـ نحتاج إلى « شريك » رابع فى رأس المال الذى سنصدر به الكتاب ، لأننا المؤلفون والناشرون ، بل والموزعون أيضا له ، وصديقنا فى النهاية رجل كسيب ، ويستطيع أن يسهم معنا بربع التكاليف من عائد الحلاقة فى أوقات الفراغ !

فعلى بركة الله إذن مضينا فى مشروع الكتاب . . وبعونه ألفنا كل مواده ، وراجعناها ، واخترنا له اسمه المهيب « وحى الأدباء »، ولم يبق إلا أن نقدمه للمطبعة ، لكى تدور عجلاتها وتحفظ هذا التراث الأدبى الخالد للتاريخ ! ثم جاءت اللحظة الحاسمة التى ينبغى لنا فيها أن نقدم مواد الكتاب للمطبعة ، ولم تكن فى مدينتنا وقتها ، سوى مطابع صغيرة تطبع الإعلانات التجارية والكروت ، وليس الكتب ، فحملنا الدوسيه الضخم الذى يضم ثمرات عقولنا ، وركبنا القطار من دسوق إلى مدينة دمنهور القريبة ، حيث المطابع الكبرى . . وتوجهنا من محطة السكة الحديد إلى مطبعة «المستقبل » التى طالما قرأنا اسمها على بعض الكتب الأدبية لأدباء الأقاليم .

وسرنا فى الطريق إليها فى وقار يليق بأمثالنا من الكتاب والمفكرين ، واستقبلنا فى المطبعة كهل يرتدى الطربوش وبدلة قديمة ، بدا لى من بياض وجهه المشرب بالحمرة أنه من أصل تركى أو ألبانى ، ولا أعرف حتى الآن كيف واتتنا الجرأة على أن نصارحه بما جئنا إليه من أجله ، لكننا صارحناه فى النهاية ، أو صارحه ـ على الأصح ـ بذلك إبراهيم ، وقد كان أجرأنا فى هذه المواقف ، ولدهشتى الشديدة . . فإن الرجل لم

يطردنا من مطبعته أو ينهرنا، طالبا منا الكف عن هذا العبث، والالتفات لدروسنا ، بل إنه أيضا لم يبد دهشة ، ولا انزعاجا ، ولم يرفع بصره إلينا، وإنما مد يده فى صمت طالبا الكتاب، فوضعنا الدوسية فى يده. وقلبه هو للحظات، ثم قال لنا باقتضاب : ستة جنيهات . . والاستلام بعد ١٥ يوما ! .

وكأنما قد انزاح عن صدرنا هم ثقيل ، وتنفسنا جميعا الصعداء بارتياح، كأننا قد اجتزنا أصعب العقبات . وفتشنا باضطراب فى جيوبنا، وأخرج كل منا نصيبه المقرر من العربون، وهو خمسون قرشا ، فاكتمل الجنيهان وقدمناهما للرجل، فتناولهما صامتا، ووضع الدوسية على المكتب، وانصرف إلى ما كان يفعله قبل مجيئنا إليه بلا كلمة واحدة، وانسحبنا نحن بهدوء ، ورجعنا إلى محطة السكة الحديد، ونحن نطير فوق السحاب! . وتساءلنا خلال رحلة العودة متعجبين كيف قدر الرجل تكاليف طبع الكتاب، بغير أن يسألنا عن عدد النسخ التى نريدها منه ؟

وتبادلنا الرأى حول هذه النقطة طويلا، ثم قررنا فى النهاية أن ندع الأمر كله لحكمة الرجل وخبرته بمثل هذه الأشياء !

وتفرغنا نحن للأمر الجلل الذى ينتظرنا ، وهو أن يدبر كل منا مبلغ جنيه كامل خلال فترة الخمسة عشر يوما القادمة، لدفع باقى فاتورة المطبعة .

ولقد كان أمرا جللا بحق . . ومطلبا عسيرا . . إذ يكفى لكى تدرك مدى صعوبته أن تعرف أن مصروفى الأسبوعى لم يكن يزيد حينذاك عن ٢٥ قرشا ، وأن هذا الجنيه المطلوب كان يكفى وقتها لشراء حذاء إيطالى مستورد من النوع الفاخر، ومعه حزام جلدى لا يقل جودة، وربما بضعة مناديل كذلك. . فكيف السبيل إليه خلال هذه الفترة القصيرة . . وكيف لم نفكر فى ذلك ونحن مشغولون بأحلام المجد الأدبى الذى ينتظرنا بعد صدور الكتاب ؟ .

لم يكن هناك مفر من أن يلجا كل منا إلى أهله، مناشدا إياهم أن يسهموا فى تشجيع «العلم والأدب » بهذا المبلغ « البسيط » ، ليس فقط لأنهم آباؤنا وأمهاتنا . . وإنما أيضا لأنه بأمثالهم من « رعاة » العلم والأدب تتقدم الشعوب، ويرقى الفكر، ولا بأس بأن نستعين بثقافتنا فى تأكيد ذلك بالأمثلة التاريخية المناسبة، وبما جاء فى الحديث الشريف عن « العلم النافع » الذى يمضى صاحبه إلى الدار الآخرة، ويبقى علمه النافع فى الأرض يستفيد به الآخرون ، ويدعون له بالمغفرة. ولست أدرى كيف كان رد فعل آباء شركائى لهذه المناشدة الخطابية المؤثرة ، لكنى مازلت أذكر حتى الآن ابتسامة أبى وأنا ألقى بين يديه هذه الخطبة الجليلة . . وهى ابتسامة حرت طويلا وقتها فى تفسيرها ، ولم أفهمها حق فهمها ، إلا حين تقدم بى العمر كثيرا، وأدركت أنها إنما كانت تتراوح بين الرضا عن انشغالى بمثل هذه الأمور التى تصرف فتى مثلى عن الانحرافات الأخرى ، وبين الرثاء الخفى والإشفاق المكتوم من أن يكون

هذا « الولد » بالفعل « مخبولاً » بعض الشىء، كما تنبىء بذلك أحيانا بعض أحواله !

لكن الأمر قد انتهى على أية حال نهاية موفقة، ورجع كل منا إلى أصحابه ، ومعه الجنيه المنشود ، بغض النظر عما خاضه من أهوال فى سبيل الحصول عليه .

وفى الموعد المحدد ركبنا القطار إلى عاصمة النور والثقافة بالنسبة لنا وقتها . . وتوجهنا إلى المطبعة وسلمنا لصاحبها المبلغ الرهيب الذى جمعناه، فتلقاه منا فى صمت ، وأشار بلا احتفال إلى رصتين من الكتب فى ناحية من المطبعة . . فاتجهنا إليهما ورفعناهما . . واكتشفنا أن الكتاب الكبير الذى قدمناه فى دوسيه منتفخ إلى المطبعة قد تحول بعد الطبع إلى ما يشبه الكراسة المدرسية ، حيث لا تزيد صفحاته عن ٤٠ أو ٥٠ صفحة. وتساءلنا فى حيرة . . أين ذهبت المواد الأدبية الخطيرة التى قدمناها للكتاب. . ؟، وهل سقط بعضها سهوا أثناء الطبع؟. وتصفحنا الكتاب بمزيج من الاضطراب والترقب . . فوجدنا كل المواد التى قدمناها للمطبعة منشورة فى الكتاب. . لكنه الفارق بين خط اليد الذى كتبناها به، وبين جمعها بحروف المطبعة الصغيرة . . ، أو قل. . هو الفارق بين الأحلام الوردية . . وبين الواقع. . فإذا كان حجم الكتاب. . وغلافه ـ الذى لا يختلف كثيرا عن ورق لف اللحم ـ قد صدمانا بعض الشىء، فإن هذه الصدمة لم تذهلنا عن الإنجاز الكبير الذى حققناه . . ولم يحرمنا ذلك من الإحساس الشديد بالزهو ونحن

نرى أسماءنا على الغلاف بنفس طريقة أسماء طه حسين ورفاقه على الكتاب إياه ، لكننا لم نستسلم طويلا لهذه النشوة . . فلقد آن الأوان لأن نفكر فى مسئولية نقل الكتاب إلى مدينتنا ، وتوزيعه على القراء المتعطشين لقراءته .

أما « النقل » ، فلم يكن مشكلة كبيرة ، فلقد تبين أن صاحب المطبعة قد طبع منه ٢٠٠ نسخة فقط ، فحمل كل منا ٥٠ نسخة من الكتاب الصغير بلا عناء ، ورجعنا إلى القطار ، وأما « التوزيع » فربما كان هو المشكلة الحقيقية التى واجهتنا ، لكنها لم تفت فى عضدنا على أية حال . . فلقد قدرنا أننا لو بعنا النسخة الواحدة بـ ٥قروش ، لغطى الكتاب تكاليفه ، وحقق لنا ربحا صافيا قدره أربعة جنيهات ، بواقع جنيه كامل لكل منا . . لكن من سيشترى هذا الكتاب الصغير لهؤلاء المؤلفين المجهولين بـ ٥ قروش ، وكتب المشاهير كانت تباع تقريبا بنفس السعر؟ ! ، ثم أين نجد مائتى قارىء لهذا الكتاب فى مدينتنا الصغيرة ، وكيف نوزعه عليهم؟ . . هل ندور به على المقاهى ، كما يفعل الباعة الجائلون ؟ ، وهل يسمح لنا آباؤنا بذلك ، حتى لو واتتنا الجرأة عليه ، أم أن الأفضل أن نسلمه للمكتبة ـ الوحيدة بالمدينة وقتها ـ وهو إن رضى صاحبها بذلك ، فلن يأخذ منه سوى عشر نسخ يبيعها لحسابنا ، وبغير أن يدفع لنا شيئا ! .

انتهينا بعد طول التفكير إلى ترك مسئولية توزيع الكتاب لكل منا ،

يتصرف فيها كما يشاء فى حدود نصيبه من عدد النسخ ، ولنر بعد ذلك ماذا سيكون من أمرنا وأمر الثقافة والفكر فى هذا الزمن ! .

ورجع كل منا إلى بيته ، حاملا مجده الأدبى بين يديه . ولست أعرف ماذا فعل شركائى فى نصيبهم من النسخ ، لكنى أعرف أن « جمهورنا » من القراء لم يتعدَّ فى النهاية بعض الأصدقاء والأقارب وزملاء المدرسة ، وأن كلا منا لم ينجح فى توزيع كتابه إلا على عدد لا يتجاوز أصابع اليدين من إخوته وأصدقائه . .

فإذا كنا قد خسرنا « الجلد والسقط » ـ كما يقولون ـ فى هذا الكتاب ، فلقد كسبنا من ورائه الكثير والكثير . . وهو إحساس الرضا عن النفس لاستثمار طاقتنا فيما تصورناه شيئا مفيدا ، وكسبنا أهم من ذلك . . معايشة الحلم الوردى ، والاستغراق فيه لفترة ثمينة من فترات العمر ، أما ركود الكتاب وعدم رواجه ، فهكذا قد صادف الفشل بعض كبار الأدباء فى بداية حياتهم ، ولم يفت فى عضدهم ، فهل نيأس نحن ؟ . لقد أصدر الروائى التشيكى الألمانى كافكا (١٨٨٣ ـ ١٩٢٤) أول رواية له . . وسعد كثيرا بصدورها ، واشترى منها عشر نسخ وزعها فخورا على أصدقائه وأقاربه ، وبعد بضعة شهور اتصل بالناشر يسأله عن توزيع الكتاب ، فأجابه بأنه لم يوزع سوى ١١ نسخة فقط ، منها النسخ العشر التى اشتراها المؤلف . . ، فإذا بالمؤلف ينشغل لفترة من الوقت بشىء واحد ، هو أن يعرف شخص هذا القارىء الوحيد لروايته ، وراح يسأل عنه فى المكتبات ، دون أن ينجح فى التوصل إليه ، فإذا كان هذا هو حال

(كافكا) الذى تطبع رواياته الآن بلغات عديدة ، فلقد كنا نحن أفضل حالا منه كثيرا . . فلقد وزع كتابنا أكثر من ١١ نسخة بكل تأكيد . . كما أننا أيضا قد عرفنا كل « أشخاص » من اشتروا كتابنا واحدا واحدا . والآن ، وبعد حوالى أربعين سنة من هذه التجربة ، فإنى أشعر - ربما أكثر مما كنت وقتها - بالامتنان الشخصى لهم . . وأدرك جيدا كم كان كريما وعطوفا كل من اشترى كتابنا هذا . . أو اكتفى بتشجيعنا، دون أن يشتريه . . ودون أن يسخر منا أو يهزأ بنا . . كما أدرك الآن أيضا كم كنا نحن حالمين . . وواهمين . . ومستغرقين فى أحلام وردية خادعة ، بدليل أننى لم أصدر كتابى الأول « الحقيقى » إلا بعد أن تخطيت الأربعين من العمر .

لكن، من قال أن الفتى فى مثل أعمارنا وقتها . . مطلوب منه ألا يكون حالما، ولا واهما، ولا مستعدا للاستغراق فى مثل هذه الأحلام الجميلة ؟ .

يوم الاثنين الحزين !

القاهرة يوم الاثنين ١٢ أكتوبر عام ١٩٩٢ . أجلس إلى مكتبى بالبيت . أفكر فى اختيار اسم مناسب لكتاب جديد انتهيت من إعداده للنشر، وسيأتى مندوب الناشر لاستلام أصوله منِّى فى المساء .

كتبت عشرة أسماء ، ولم أهتد بعد إلى الاسم المطلوب . وفتحت ديوان الشاعر الأثير إلى قلبى (إبراهيم ناجى) صاحب قصيدة «الأطلال » التى تغنيها أم كلثوم ، وراجعت عناوين قصائده الجميلة ، لعلها تلهمنى اسما شاعريا يتناسب مع موضوع الكتاب . واستقريت بعد عناء طويل على الاسم الذى راقنى وكتبته على صدر الكتاب .

كان صباح هذا اليوم حافلاً بالعمل، وواعداً بالآمال . صحوت من نومى مبكراً، وشربت قهوتى ، وجلست إلى مكتبى بالبيت ، وانهمكت فى العمل . راجعت بعض المواد الصحفية لمجلة الشباب التى أرأس تحريرها . . وأعددت باب بريد الأهرام اليومى الذى سينشر بعد غد ، وتلقيت بضعة اتصالات تليفونية، كان أحدها من صديقى الناشر المعروف ، يبلغنى أنه سيعيد طبع بعض كتبى ، استعداداً لمعرض القاهرة

الدولى للكتاب فى يناير القادم ، وسيرسل لى عقود الطبعة الثانية فى المساء . سعدت بالخبر ، واستثار حماسى لإنهاء الكتاب الذى وعدته بإنهائه اليوم . . وتفاءلت خيراً بالمستقبل .

قررت أن أضاعف من ساعات عملى، لإنهاء عدد مجلة الشباب، ليدخل المطبعة فى موعد مبكر هذا الشهر ، لكى أستطيع الوفاء بارتباطاتى قرب نهايته . سأسافر إلى الاسكندرية يوم ٢٣ أكتوبر مع أسرتى لحضور زفاف إبنة شقيقتى ، ثم أعود فى اليوم التالى لأواصل العمل ليل نهار ، لكى أنهى التزاماتى خلال ثلاثة أيام ، وأتمكن من السفر إلى فرنسا فى الموعد الذى حددته يوم ٢٧ أكتوبر ، لأقضى هناك ١٥ يوما فى خريفها الجميل .

وضعت لنفسى جدولا دقيقاً للعمل خلال الأيام الباقية من الشهر، يقسم وقتى تقسيما عادلاً بين التزاماتى فى الأهرام ، وفى الشباب ، وبين قراءاتى . . وأسرتى وأصدقائى . . وكل شىء يمضى وفقا لهذا الجدول الدقيق . . ولا حظت ـ برضا ـ أنى ملتزم بالجدول الذى وضعته بصرامة وكل شىء يمضى على مايرام .

عاد ابنى من مدرسته قبل موعده بساعة ، لأن مدرسته تخفف جدول الحصص على طلبه الثانوية العامة، ليستطيعوا استذكار دروسهم بالبيت لوقت أطول . حيَّانى وأنا منكفىء على المكتب ، فرفعت رأسى إليه مبتسماً دون كلام، ثم عدت للانحناء على الورق . غبت عن كل شىء حولى، حتى تنبهت على عودة ابنتى من مدرستها الثانوية، وهى نفس

مدرسة شقيقها ، لكنها تعود بأتوبيس المدرسة الذى لم ينتظره شقيقها وفضل أن يكسب ساعة يرتب فيها أوراقه، استعداداً لسباق الثانوية العامة .

نبهتنى زوجتى إلى أنها ستعدُّ طعام الغداء بعد دقائق ، ورجتنى ألا أؤخر انتظارهم طويلاً ، فهززت رأسى موافقاً ، وعدت إلى الورق .

أحسست فجأة بشىء من الدوار يصيبنى ، فرفعت رأسى، وتصورت أن ضغطى قد ارتفع مره أخرى ، واتهمت فناجين القهوة التى شربتها، والتركيز الشديد فيها اكتب منذ الصباح ، وقررت أن أستريح بعض الوقت . لم يتوقف الدوار ، بل ازداد . . فرفعت رأسى ونظرت حولى، فوجدت المكتبة الصغيرة إلى يسارى تميل بشدة يميناً ويساراً ، والتماثيل التى فوقها تتساقط عليها ، ثم توقفت . بعد ثوان عادت تميل مرة أخرى ، وبشدة أعنف ، وسقطت التماثيل منها إلى الأرض . . ومازال الارتجاج مستمراً . . يا إلهى . . إنه ليس دواراً . . ولا اهتزازاً عابراً من أثر السيارات الثقيلة التى تمر فى الشارع المجاور . . بل ولا هزة أرضية خفيفة، كالتى عاصرتها من قبل مرتين فى حياتى الحافلة بالآلام والمخاوف . . إنه شىء آخر بشع، لا يحس ببشاعته إلا من شاء له قدره أن يكابده . لا مكان . . لأن المكان يتحرك ، ولا تعرف إلى أين يتجه . ولا أمان . . لأنك لا تعرف ماذا سيحدث فى اللحظات التالية . هل سيعود كل شىء إلى ما كان عليه . . أم سيتطاير المكان والزمان، وتسقط أنت إلى المجهول الذى لا تعرفه ؟ ! . ولا زمان . . لأن الثانية

الواحدة تمر عليك كالدهر الطويل . . ولا غد . . لأنك لا تعرف إذا كان هناك غد ، أم أن كل شيء فى حياتك قد أصبح ماضياً .

نهضت من مكتبى ، فوجدت ابنى وابنتى مذهولين ، وقد ابيض وجهاهما بياض الرعب ، وانسحبت منهما دماء الحياة . . وزوجتى خلفهما ، وذعر الدنيا فى عينيها . هتفت فيهم : انزلوا . . غادروا الشقة جريا إلى أسفل . لا يفكر المرء فى مثل هذه اللحظة القاسية فى شيء سوى فى طلب النجاة ، وإنقاذ أعزائه من المجهول . لا يعنيه شيء آخر فى الحياة . . لا مظهر . . ولا مال . . ولا برامج ، ولا خطط للمستقبل ، ولا شيكات ، ولا ذهب ، ولا مجوهرات . . ولا كتب ، ولا عقود ، ولا أى شيء . . سوى طلب النجاة ! .

خرجوا من باب الشقه وأنا خلفهم ، وتأخرت قليلا لآتى بمفتاح الشقه ؛ فتعجلتنى ابنتى وهى مرتعبة « أسرع يابابا » . . ومعها كل الحق . . إذ لماذا أحرص على إحضار مفتاح الشقة ؟ ، ومن يدرينى أننا سنعود إليها ؟ ، أو أننا سنجدها فى مكانها إذا قدرت لنا النجاة ؟ ، بل من يدرينا أيضا ـ حتى لو سلمت الشقة ـ أننا سنكون على قيد الحياة ، لكى نحتاج إليها فيما بعد ؟ . . وممَ نفرّ ؟ . . وإلى أين المفرّ ؟ . . وهل سلالم البيت التى اندفعنا نهبطها أكثر أمنا من الشقة التى غادرناها ؟ ، وهناك من يؤكدون أن أول ما يتعرض للخطر فى مثل هذه الظروف هو درج البيوت . . لكن ماذا كنا نملك أن نفعل سوى ذلك . . ؟ ، ومن أين للإنسان فى مثل هذه اللحظة المخيفة قدرته على التفكير الهادىء

المتزن ؟ . لقد فررنا من قضاء الله . . إلى قدره . . وإليه أنبنا . . وإليه المصير . وهكذا فعل قبلنا عمر بن الخطاب ، حين رجع عن دخول قرية بالشام، علم بانتشار الطاعون فيها ، وسأله أحد صحابته : أنفرُّ من قضاء الله؟، فأجابه : نعم نفرُّ من قضاء الله إلى قدَرِ الله . هكذا فعلنا .

مسكننا فى الدور السادس من عمارة كبيرة متوسطة العمر، بنيت فى زمن لم يكن خراب الذمم فيه قد انتشر . . لهذا . . فهى متينة . . لكن من يحمى من قضاء الله . . إلا مشيئته وحده سبحانه ؟ .

على السلالم رأيت الجيران يتدافعون للهبوط ، وقد استولى الرعب عليهم ، ورأيت النساء بملابس البيت يبكين ويصرخن . . وينطقن بالشهادتين بصوت عال ، والأطفال من حولهن حيارى ، تجمد الرعب فى عيونهم ، ومن بعيد يترامى إلينا الصراخ والشهقات . . ما أقسى أن ترى مدينة بأكملها تصرخ هلعا ورعبا فى وقت واحد ، وليس من حولك سوى باكٍ ، أو مرتعب ، أو تعلوه صفرة الموت من الذعر والهلع وترقب المجهول ، فكيف يكون الحال يا إلهى يوم يفر المرء من أخيه ، ومن أمه وأبيه . . وحين تزلزل الأرض زلزالها ، وتخرج الأرض أثقالها ، ويكون الهول الأعظم ؟ ! .

وما أقسى أن ترى أبناءك وهم يتعاملون ـ لأول مرة فى حياتهم ـ مع الحقيقة الأزلية المخيفة ، التى دربت نفسك ـ بالإيمان ، وتكرار التجارب



خلال رحلة العمر - على ترقبها وتوقعها فى أى لحظة . . فى حين لم يدخلها الأبناء بقلوبهم الغضة المتطلعة للغد فى حسابهم بعد ، وما أقسى أن تراهم يرتجفون هلعا وخوفا من مجهول لا تعلمه ولا تعرف مداه ، ولا تملك لهم من أمرهم شيئا .

الخوف إحساس إنسانى صحيح يرتبط بالطبيعة البشرية ، ويعدُّ افتقاده فى المواقف التى تستدعيه دليلا على اختلال القوى العقلية، أو الاختلال النفسى ، تماما كما تُعَدّ المبالغة فيه بغير أسباب منطقية دليلا آخر على اختلال مماثل . وليس هناك من الأسوياء من لم يعرف الخوف ويكابده فى المواقف التى تستثيره بشدة ، مهما كانت شجاعته .

والخوف من الموت إحساس طبيعى يراود كل البشر، مهما كانت شجاعتهم، أو صلاحهم وتقواهم . . فحبُّ الحياة غريزة لدى كل الأحياء على السواء .

والعادل الزاهد فى نعيم الدنيا ، والراغب بصدق فى نعيم الآخرة ، والموعود بالجنة ممّن لا ينطق عن الهوى ، العظيم عمر بن الخطاب هو نفسه الذى قال وهو يعانى سكرات النزع الأخير لمن حوله . . « إن للحياة لنصيباً من القلب ، وإن للموت لوحشة ! » .

والعابد الورع التقى أمير المحدِّثين بحديث رسول الله - عليه الصلاة والسلام - سفيان الثورى ، هو نفسه الذى تولاه الجزع حين حضره

الموت، فقيل له : ما هذا الجزع . . أليس تذهب إلى من عبدته وفررت ببدنك إليه ؟ ، فقال : ويحكم . . إنى أسلك طريقا لم أعرفه . . وأقدم على ربّ لم أره ! .

وفى مسرحية « ثم غاب القمر » للكاتب الأمريكى جون شتاينبك . . ساق الألمان بطل القرية الشجاع ألكسندر إلى الإعدام ، فسأله عمده القرية فى تعاطف حزين قبل أن يرموه بالرصاص :

هل أنت خائف ياألكس ؟

فأجابه فى هدوء : نعم ياسيدى ! .

وهكذا كل إنسان . . « وما أبرىء نفسى »، غير أنى تذكرت أن خوفى فى آخر هزّة أرضية عاصرتها فى نفس المسكن بالدور السادس فى عام ١٩٦٩ كان خوفا بسيطاً ، لأنى كنت أيامها أعزب ، أعيش وحيداً فى مسكنى ، ولم يترك فى نفسى أية آثار نفسية سلبية عقب انتهاء الخطر . . أما فى هذه المرة . . فلقد ضاعف منه هلعى على أسرتى وأبنائى ، وإحساسى بالعجز عن حمايتهم مما لا حيلة لى معه . وكيف أحميهم من مجهول لا أعرف مصدره . . ولا متى ينتهى ، أو إلامَ يدوم ؟ . . وكل من حولى فى هلع ، يسعى للنجاه بنفسه ، وما يدرى إلى أين المصير . أما آثاره النفسية علىّ، فقد لازمتنى لأيام . . فقدت خلالها حماسى لأشياء كثيرة فى حياتى . . وركزت جهدى وهدفى فى تهدئه روع أبنائى ،

ومعالجة آثار الخوف والإحساس بعدم الأمان الذى سيطر عليهم لفترة بعده .

ومع كل مارويت لك . . فإن هذا « الهَوْل » كله لم يطل أكثر من دقيقة ، كانت أطول من الدهر ، ولم نغادر العمارة . . بل ولم نصل فى هبوطنا المذعور على سلالمها إلى الدور الأرضى منها . . فلقد تمالكت نفسى حين وصلت إلى الدور الثالث . . ومنعت أسرتى من النزول ، بعد أن توقفت الهزه الأرضية العنيفة ، ووقفت أتحدث مع جيرانى عنها . . وكيف جاءت شديدة جداً ، ولم نشهد لها مثيلا من قبل . . ولم أعرف حتى الآن كيف استطعت أن أتبادل الحديث معهم وأشاركهم الرأى فى أنها أبشع هزة أرضية شهدناها فى عمرنا . . ثم اصطحبت أسرتى، وعدنا نصعد الدرج مرة أخرى إلى شقتنا .

ودخلنا إلى مسكننا ونحن جميعا غير قادرين على الكلام ، وكان أول ما خطر بذهنى عندها ، هو أن أدخل الحمام لأتوضأ وأصلى ركعتى شكر لله ، أن كان لطفه بنا كبيراً . وخرجت من الحمام ، فرأيت زوجتى وابنى وابنتى يصلّى كل منهم بلا اتفاق فى مكان منفصل ، وجلست بين يدى الله أقرأ من آيات ذِكْره الحكيم : « ربَّنا أبصَرنا وسمِعنا فأرجعنا نعمل عملاً صالحاً إنا موقنون » (آية ١٢ من سورة السجدة) . واسترحت لما قرأت، ووجدت فيه تعبيراً صادقاً عن حالنا . . فلقد أبصرنا وسمعنا حقاً . . ودعونا الله بقلوب مرتجفة أن يرجعنا بقدرته ولطفه بعباده ، فاستجاب لدعائنا فضلا وكرما منه سبحانه . . فعسى أن نعمل صالحاً

حقا ، وعسى ألا ننسى الوعد ونعود إلى تصارعنا حول الصغائر ، وتمسكنا بما لا قيمة له .

ولقد كان هذا هو أول ما خطر بذهنى حين اتصل بى شقيقى بعدها بلحظات ليطمئن على . . فاتفق رأينا تلقائيا على أنها « تذكرة » من الله سبحانه وتعالى للناسين أن وعد الله حق . . وتنبيه للغافلين ، عسى أن يفيقوا من غفلتهم ، ويذكروا من ينسونه أحيانا فى صراعات الحياة حول أتفه الأمور .

وأمسكت بالتليفون أتصل بأمى وإخوتى فى أكثر من مدينة من مدن مصر ، لأطمئن على سلامتهم ونجاتهم . . وعلى الأصدقاء والأحباء ، وبدأت أخبار الهزة اللعينة والمشاهد الكئيبة للمنازل التى انهارت ، والضحايا التى سقطت تتوالى علينا من شاشة التليفزيون ؛ وتزيد من اكتئابنا الحزين .

وبصعوبة شديدة حاولت طمأنة أولادى إلى أن الخطر قد زال نهائيا والحمد لله ، وأن مثل هذه الهزة قد لا تحدث إلا كل ٢٥ أو ٣٠ سنة ، وباطنى يهتف بالخوف من احتمال تكرارها ، وفقا للحقيقة الجيولوجية عن عدم استقرار قشرة الأرض لفترة تصل إلى ٧٢ ساعة بعد كل هزة من هذا النوع .

وغادرت بيتى إلى عملى بعد ساعتين . . ولأول مرة طوال حياتى

الصحفية التى بدأت منذ أكثر من ثلاثين سنة ، لا أجد نفسى راغبا فى الاشتراك فى الإشراف على التغطية الصحفية للحدث ، بل وحمدت الله كثيراً أننى لست المسئول عن إصدار الطبعتين الثانية والثالثة من الأهرام فى تلك الليلة ، وإلا لتضاعف اكتئابى وحزنى . . وقضيت أمسية الاثنين أستقبل قراء بريد الأهرام من المرضى وطالبى العلاج والإعانات الاجتماعية ، وأصحاب الهموم والمشاكل الإنسانية . وأحسست أن هذا هو أكثر أنواع العمل الصحفى ملاءمة لحالتى النفسية وقتها . . وربما أكثرها نفعا لى ولغيرى على وجه الإطلاق . وجاءنى زميل صديق يعلق ضاحكا على بعض المفارقات المثيرة للضحك والتأمل التى حدثت وقت الهزة الأرضية ، فوجدت نفسى عاجزاً حتى عن الابتسام ، وقلت له عاتبا : من أين جئت بهذه القدرة على المرح . . ونحن فى مأساة مات فيها أطفال ، وثكلت فيها أمهات ، ووئدت فيها بنات وآمال ؟ .

ثم انصرفت عائداً إلى البيت فى منتصف الليل . . ووصلت إلى العمارة ، فوجدت بعض سكانها مجتمعين فى مدخلها ، ومن بينهم أسرتى . . يا إلهى . . ماذا حدث مرة أخرى ؟ . لقد اتصلت سيدة بأمها من ساكنات العمارة ، وأبلغتها أنها سمعت أن محطة «سى . إن . إن» الأمريكية قد أذاعت أنه ستحدث هزة أخرى أشد بعد منتصف الليل ! .

ياربّى . . متى ينتهى هذا العذاب ؟ . لقد رحت أحاول طمأنتهم بأن الهزات التى تتلو الهزة الشديدة تكون طفيفة ، ولا يشعر بها إلا سكان

الأدوار العليا ، كالعشرين ومابعدها . . ولا تتأثر بها إلا المنازل التى تضررت بالفعل من الهزة الرئيسية . . فاقتنع من اقتنع ، وعاد إلى مسكنه، وبقى من لم يطمئن قلبه . . وآثر البعض أن يمضى ليلته مع أسرته فى الحديقة العامة القريبة ، التى رأيت عشرات من الأسر تفترشها فى مشهد موجع للقلب . . وعلى مثل هذا الحال من التوجس والترقب وتبادل الأخبار والشائعات عن حدوث هزات جديدة ، عشنا الأيام التالية التى توالت علينا فيها فعلاً الهزات الخفيفة أكثر من مرة فى اليوم . . فكانت تثير الحيرة فى أنفسنا . . هل هى هزة أرضية . . أم هو الاهتزاز الذى أصاب أعصابنا ، وبدّد إحساسنا بالأمان إلى مالا نهاية ؟

زوجتى الثانية !

فى حياتى الخاصة سر ، أريد أن أبوح لك به !. يبدو أننى قد تزوجتُ مرة ثانية ، وأنجبت فى زواجى الثانى ولداً ، أو ولدين ، وربما ثلاثة !

ومع أن المألوف أن يعرف الإنسان دائماً متى تزوج على وجه الدقة ، وكم أنجب من الأبناء . . فإنى أستسمحك عذراً فى عدم تحديدى الدقيق لهذه الأمور ، لسبب مهم ، هو أننى لم « أعلم» بأنى متزوج من «أخرى » إلا منذ حوالى سبع سنوات فقط ، مع أن « أبنائى» منها قد بلغوا الآن سن الشباب ، والحمد لله !

أما كيف « علمت » بهذه المسأله المهمة . . فلذلك قصة بدأت منذ بضع سنوات . . . فأنا أتلقى من قارئات وقراء بريد الجمعه عدداً هائلاً كل يوم من الخطابات . . وقد خلقت علاقة القراءة بانتظام بيننا نوعاً من الأُلفة والثقة ، أعتزُّ بهما كثيراً ، وأعتبرهما جائزتى الحقيقية عما أبذله من جهد فى قراءة هذه الرسائل ، ومعايشة هموم أصحابها . . ومحاولة أن أشير عليهم بما أراه محققا لصالحهم فيما يعرضون علىَّ من مشاكل .



وذات يوم وجدت بين هذه الرسائل رسالة قصيرة ، خُيِّل إلَىّ أنها قد دُسَّت خطأً فى ملف رسائلى ، فقد كانت تبدأ بعبارة : زوجى العزيز . . ثم تتحدث بعد ذلك عن شئون عائلية عادية ، وتنتهى بطلب لقاء الزوج فى موعد محدد بالإسكندرية ، وبتوقيع : زوجتك العزيزة .

سألت مساعدتى فى بريد الأهرام : كيف وصلت هذه الرسالة إلى ملف رسائلى؟ ، فأجابتنى بأنها هى التى وضعتها ، لأنها وجدت اسمى على مظروف الرسالة ؛ فرجّحتُ أن هذه الزوجة كانت تهمّ بكتابة رسالتين فى نفس الوقت . . الأولى لزوجها ، والثانية لى ، لعلها كانت تستشيرنى فيها فى أمر ما ، ثم أخطأت وضع الرسالتين ؛ فوضعت كلا منهما فى المظروف الخطأ . . وتصورتُ ما سيحدث لزوجها حين يفتح رسالته ، فيجد داخلها رسالة موجهةً إلَىّ ، لعلها تشكوه فيها إلَىّ ، وتطلب رأيى فى الانفصال عنه ، كما تفعل بعض الزوجات فى أحيان كثيرة معى .

وأشفقتُ على السيدة وزوجها من هذا الخطأ . . ولم يكن بالرسالة ولا بالمظروف اسم ولا عنوان لأعيد الرسالة إليه ؛ فمزقتها ونسيتُ الأمر.

وبعد أسبوعين وجدت فى ملفى رسالة أخرى من نفس الزوجة ، بنفس العبارة فى بدايتها ، ونفس التوقيع فى ختامها ، وفى هذه المرة وجدتُ المظروف الذى جاءت فيه مرفقاً بها ، وعليه اسمى الصريح . وقرأت الرسالة ، فوجدتها تتحدث أيضاً فى شئون عائلية ، وتنتهى بطلب اللقاء ، ثم توالت الرسائل بعد ذلك بانتظام . . فلم يعد

يساورنى شك فى أن « الزوجة العزيزة » تقصدنى شخصيا . . وتتصور أنى زوجها ، وتحدِّثنى فى كل رسالة عن شئون الأولاد ، وتطلب مقابلتى، وتعطينى مواعيد للقاء فى أماكن محددة بالإسكندرية، هى دائماً . . أمام مسجد سيدى المرسى أبى العباس . . أو فى محطة الترام ، دون تحديد لاسم المحطة ، أو أمام المدرسة ، دون تحديد لاسمها، بافتراض أنى أعرفها . . كما أنها تحدد موعد اللقاء ، فتقول فى الساعة الثانية بعد الظهر مثلاً ، دون تحديد لتاريخ اليوم . وفى كل الأحوال . . فالرسالة خالية من اسمها وعنوانها ، بافتراض أن « الزوج» لابد أن يعرف عنوان زوجته، وأسرته ، وليس فى حاجة لمن يذكّره به .

وقدرت أن كاتبة هذه الرسائل تعانى من الوحدة، وضغوط نفسية قاسية ، فهربت منها إلى دنيا الخيال وأحلام اليقظة؛ واصطنعت لنفسها فى الخيال زوجاً يشاركها حياتها واهتماماتها الأسرية ، وتروى له عن أحداث يومها ، وعما فعل ابنها ـ الذى هو ابنه أيضاً ـ فى غيابه ، كما تفعل الزوجة مع زوجها الغائب عنها فى سفر .

وهى حالة من حالات الاستغراق فى أحلام اليقظة، تعدَّت الخيط الرفيع بين دنيا الواقع وعالم الوهم ، فقادت إلى نوع من اضطراب التفكير، اختلطت فيه الحدود بين عالم « الأفكار» ودنيا الواقع ، وعبرت « الأفكار » حاجز الخيال . . وخرجت إلى الأرض ! . . تماماً كما تستغرقنا أفكارنا التى تلحُّ علينا ؛ فنجد أنفسنا نعبر عنها فى بعض الأحيان بكلمات مسموعة ، كأنما نخاطب بها شخصاً ليس موجوداً

أمامنا ، لكننا كنا نتحاور معه فى خيالنا ، وازداد إلحاح الأفكار علينا ؛ فتحولت إلى فعل . . هو الكلام . وهذا سلوك لا يكاد ينجو منه إنسان إذا ألحَّت عليه أفكاره بشدة . ولا يعنى أبداً فقده لقواه العقلية ، أو لاتزانه النفسى ، وإنما يعنى فقط شدة همّه بأمر يشغله إلى حد تجسد الأفكار رغما عنه فى شكل عبارات منطوقة .

وتذكرتُ حين قرأت هذه الرسائل قصة المعتقل السياسى، الذى لاحظ زملاؤه فى العنبر أنه يحرص على أن يحدِّث زوجته فى التليفون فى الساعة الخامسة مساء من كل يوم، فيرفع حذاءه ، ويدير « رقم » بيته فيه ، ثم يضعه على أذنه، ويبدأ حديثا طويلا مع زوجته ، يطمئن خلاله على الأولاد . . ويتابع مذاكرتهم ، ويحل مشاكلهم . . وتستغرق المكالمة ساعة كاملة ، يضع بعدها الحذاء إلى جواره . . ويلتفت لزملائه مؤكداً لهم أن الأسرة بخير، لكن الولد لا يذاكر جيداً . . والبنت درجاتها فى امتحان الشهر ليست على ما يرام ، فلا يسخر منه زملاؤه أو يتهمونه بالجنون ، وإنما يشاركونه الاهتمام بأحوال الأسرة ، وهم يعرفون أنه ليس مجنونا ، لكنه مهموم بشئون أسرته ، المحروم من الاتصال بها . وتزايدت الضغوط النفسية عليه ؛ فهرب منها إلى تخيّل إمكانية اتصاله بأسرته ، ومشاركتها أمورها كل يوم ؛ وتعدت أفكاره حاجز الوهم . . فتحولت إلى فعل .

وهى حيلة نفسية معروفة . . تدافع بها النفس عن كيانها ضد الضغوط والأحزان والآلام التى تعجز عن احتمالها . . وتختفى أعراضها

غالباً باختفاء هذه الضغوط التى صنعتها ، فيستعيد الإنسان اتزانه النفسى والعقلى .

وفى حالة هذه السيدة « زوجتى الثانية» . . فهى - كما فهمت من رسائلها - إنسانة وحيدة ، متوسطة العمر غالبا ، لها ابن أو اثنان فى سن الشباب ، لابد أنها أرملة، أو مطلقة وحيدة ، ثقلت عليها وحدتها لانصراف أبنائها الشباب إلى حياتهم عنها ، فى نفس الوقت الذى تواجه فيه مشاكل الحياة وضغوطها وحدها . . فرأت أن الحل المثالى لمن كانت فى مثل ظروفها هو أن تتزوج ، ويصبح لها شريك حياة ، يشاركها حمل أعباء الأسرة النفسية والأدبية، وتتحدث إليه عن الأبناء ومشاكلهم . ولما كان الحل المثالى صعبا فى أرض الواقع . . فقد اصطنعته بسهولة فى دنيا الخيال . . ووقع الاختيار على شخصى الضعيف لأسباب غير معلومة لدىَّ ، لكنى أشكرها عليها على كل حال ، لأكون هذا الشريك الغائب. وهكذا توالت رسائلها إلىّ دون انقطاع منذ حوالى سبع سنوات إلى الآن . . حتى بدأت أنا نفسى من جدّية هذه الرسائل « أشك » أحياناً فى أننى ربما أكون قد « تزوجت » من أخرى، دون أن أدرى ! ، تماماً كما فوجىء الكاتب البريطانى جراهام جرين بأن هناك شخصاً آخر يحمل نفس اسمه ، وله نفس ملامحه تقريباً . . يظهر فى الهند، وتنشر الصحف خبر وصوله وصورته على أنه الكاتب البريطانى الذى لم يغادر لندن . . أو يظهر فى أمريكا الجنوبية ، وتنشر الصحف صورته، وجراهام جرين الحقيقى فى بيته بالعاصمة البريطانية ، وتوالى ذلك عدة

سنوات، حتى كتب جرين فى مذكراته أنه من كثرة تكرار هذه الأخبار، قد بدأ يتساءل فى نفسه : من هو جراهام جرين الحقيقى ؟ . . أهو ، أم « الآخر » الذى يتنقل بين أرجاء العالم حاملاً اسمه . . ونفس ملامحه تقريباً ؟ !

ومع أنه ليس من اللائق أن أطلعك على رسائل « زوجتى الثانية » لى، فإننى لا أجد حرجاً فى ذلك ، لسبب مهم، هو أنها كلها مكتوبة بتحفظ فى المشاعر ، وتركز على الشئون العائلية، كعادة بعض الزوجات فى رسائلهن للأزواج . . فإذا كانت فيها عبارة عاطفية واحدة ، فهى عبارة متحفظة أيضاً ، لكنها بليغة فى التعبير المتحفظ عن المشاعر . . وهى العبارة التى تختم بها رسائلها ، فتقول :

وفى الختام . . وليس بيننا ختام . . زوجتك العزيزة ! . أما الرسائل نفسها ، التى أصبحت تملأ ملفاً خاصاً بها فى مكتبى ، فهذا نموذج لها ، مع ملاحظة أن الكلمات التى بين الأقواس من تعليقى ، وليست من إنشاء كاتبة الرسالة :

زوجى العزيز . . أدام الله عمره ، ومتَّعه بصحه جيدة . وبعد . . حسام « يبدو أنه أكبر أبنائى » سيتناول طعام الإفطار عند بنت خالتى عنايات . . « كان الوقت فى رمضان عند إرسال الرسالة » ، وجاء المعلم رمضان، وعاين الأنتريه ، وسيقوم بتنجيده كما طلبتَ « لم أطلب شيئاً من ذلك . . والله على ما أقول شهيد! » . وقد زارنا أخى وزوجته . . والأولاد لعبوا فى الشقة بتحريض من مامتهم « يبدو أنها تكره

زوجةأخيها »، وقد تفاهمتُ مع حسام على كل شىء، وبرجاء مقابلتى اليوم للأهمية ، ورجائى ألا تتأخر وتلطعنى من فضلك . والسلام ختام . . وليس بيننا ختام . . زوجتك العزيزة.

وعلى هذا المنوال تمضى معظم الرسائل ، ومنذ حوالى سبع سنوات تقريبا . وإذا كنت قد سعدتُ لشىء فى هذه الرسائل ، فلأنها لا تعاتبنى أبداً على عدم الحضور فى الموعد الذى ضربته لى فى الإسكندرية أمام مسجد المرسى أبو العباسى ، أو فى محطة الترام ، ولا تشير أبداً إلى إخلافى لهذا الموعد . . فهذه هى قمة التسامح مع « الأزواج »، ودرس ينبغى أن تتعلمه الزوجات « الحقيقيات » اللاتى لا يتمتعن - للأسف - بنفس هذا القدر من التسامح مع الأزواج الحقيقيين ، مع أن التسامح هو سر استمرار الزواج ونجاحه ، وبفضله دامت « عشرتى » لهذه الزوجة الثانية المتسامحة لحوالى سبع سنوات حتى الآن . . وبمثل هذه الروح الطيبة المتسامحة ستدوم حتى نهاية العمر إن شاء الله .

ولقد ظللتُ معتقداً أن لى ابناً واحداً ، هو « حسام » إلى أن بدأ يتردد فى رسائلها اسم ابن آخر منذ فترة، هو « عصام » . . فحمدتُ الله كثيرا على هذه النعمة ، ودعوتُ لها بعدم الزوال ، وليس مستبعداً أن يظهر لى ابن ثالث، وربما بنت فى أى وقت . . ولن أستغرب لذلك إذا حدث ، لأن « زوجتى الثانية » لا تبوح لى بأسرارها دفعةً واحدة ! ، لكن « الحياة » تمضى بيننا على ما يرام ، رغم تحفظها فى إبداء مشاعرها تجاهى ، ورغم إخلافى الدائم لمواعيد اللقاء بيننا . وهذا ما يزيدنى

تقديراً لها ، إذ ينبغى أن يستمر الزواج دائماً دون توقف أمام مثل هذه «الصغائر» ، حرصاً على مصلحة الأبناء . . وترفعاً عن هذه التوافه التى لا تليق بزوجين متوسطى العمر مثلنا !، أم تُرانا سنهدم بيتاً ، ونمزق بيننا ابنين فى سن الشباب « حتى الآن من فضلك » بسبب ضيقى بتحفظ «زوجتى » فى التعبير عن مشاعرها معى ، أو بسبب أكثر تفاهه ، هو إخلافى الدائم لمواعيد اللقاء بيننا منذ سبع سنوات ؟ .

لقد روى الدكتور حسين أحمد أمين فى كتابه الممتع « فى بيت أحمد أمين » عن أبيه الأديب والمؤرخ العظيم ، أنه سبق أسرته إلى رأس البر ذات مرة فى الأربعينيات لاستئجار عشة لقضاء إجازة الصيف ، فكتب إلى زوجته خطاباً يعدُّ نموذجاً « مثالياً » لتحفظ أزواج الجيل القديم مع زوجاتهم ، فكانت رسالته إليها هكذا ، وبدون أى عبارات من نوع زوجتى العزيزة ، أو الفاضلة ، إلخ . . . :

١ ـ إحضار الكتب الموضوعة على الكومودينو .

٢ ـ إحضار أكياس مخدات وملاءات للأسرة .

٣ ـ الحضور يوم كذا بالقطار .

والسلام ، أحمد أمين ! .

فهل تستطيع أن تقارن تحفظ « زوجتى الثانية » معى بتحفظ الدكتور أحمد أمين مع زوجته ؟! . ومع ذلك . . فلقد استمرت العشرة بين الأديب وزوجته حتى نهاية الرحلة. وستستمر كذلك بينى وبين هذه

«الزوجة الثانية» التى لاأعرفها ، ولا أريد أن أعرفها ، حتى لا تتأثر صورتها الوقور المتسامحة فى خيالى . . فالخيال أفضل كثيراً من الواقع فى بعض الأحيان . وهو واحةُ كل مهموم بواقعه، وبما يثقل عليه فيه . ولا بأس باحلام اليقظة إذا كانت ستخفف عنا بعض الضغوط النفسية التى نعانى منها ، ولكن بشرط ألا تتجاوز حدود الأمان . . وألا تتحول إلى حلم دائم نعايشه ليل نهار . . فيخرج من دائرة الأفكار إلى دائرة الأفعال .

وتبدأ المشاكل . . . ! .

يا جميل .. « انظر » إلىَّ !

القاهرة في أواخر أيام أغسطس . . أجلس إلى مكتبى فى البيت لأكتب آخر «واجباتى» الصحفية ، قبل أن أبدأ إجازة قصيرة لمدة أسبوع فى الإسكندرية . الوقت قبيل العصر ، والحرارة والرطوبة تخنقان الأنفاس ، ومع ذلك . . فلابد من « العمل » فى أسوأ الظروف . لا تسلنى وأين التكييف . . وكيف لا يخفف عنك حرارة الجو ؟ ، فمنذ ٢٠ يوماً لم أضغط على زره ، ولا أريد أن أفعل ، فلقد أصبت بنزلة برد منه مرتين هذا الصيف . . كانت أخراهما شديدة ، حتى كادت تفقدنى القدرة على العمل .

أمدُّ يدى إلى صف شرائط الموسيقى والغناء الموضوع إلى جوارى لأختار شريطاً أضعه فى المسجل ، فتقع يدى على شريط قديم من تسجيلاتى الخاصة لحفل أقيم فى معهد الموسيقى العربية منذ ثلاثين عاماً أو أكثر . أنظر إليه بحنين غريب . . وأتعجب كيف لم أسمعه منذ سنوات طويلة ! . أضعه فى المسجل . . فينساب منه صوت المطرب الأصيل القديم عباس البليدى ، يغنى دوراً قديماً جميلاً ، لعله من أدوار محمد عثمان :

الحبيب للهجر ناوى

والفؤاد ميال إليه

يفوتنى ويصاحب العوازل

هو جرى فى الدنيا إيه

للجمال أنا قلبى يعشق

يا جميل انظر إلىّ !

ياإلهى . . الصوت جميل . . واللحن دافىء . . والإحساس مغلَّفٌ بشجن غامض، لعله شجن الذكرى والأسى على الأيام التى تمضى ولا تعود .

لم تسمع الدنيا أبداً لرجاء المطرب القديم ، الذى توسل لها قائلاً :

أتانى زمانى بما ارتضى

فباللهِ يا دهر لا تنقضِ

فانقضى الدهر . . وشغلتنى الحياة والعمل عن كثير من المتع الروحية التى كنت أنهل منها فى سن الشباب، فكيف طحنتنا عجلة الحياة هكذا، وصرفتنا عن كل الهوايات القديمة الجميلة ؟ . كنت فى الستينيات وأوائل السبعينيات أحرص على حضور حفلات معهد الموسيقى العربية ، وأتابع عروض جمعية إحياء التراث العربى، التى كانت تعقد جلساتها بقصر المانسترلى القديم بحى الروضة . . ولا

تفوتنى حفلات فرقة الموسيقى العربية بقاعة سيد درويش بالهرم ، ناهيك عن حفلات أوركسترا القاهرة السيمفونى فى نفس القاعة ، أو فى قاعة إيوارت التذكارية بالجامعة الأمريكية ، فشغلتنى الحياة عن كل ذلك . . فلم أعد أشهد حفلاً سيمفونياً أو عرضاً للأوبرا ، إلا فى رحلاتى الخارجية إلى أوروبا مرة كل صيف .

صوت عباس البليدى الحزين الجميل يردد كلمات الدور الغنائى الرصين . . ويناشد حبيبه المجهول الرفق به ، ويذكّره بأن « الوداد أحسن وأوفى » ويتساءل مشفقاً : « بس ليه كُتر الأسيَّة ؟ » ويختتم أغنيته متسائلاً بألم :

العوازل بتكايدنى . . تبقى

إنت والعُزَّال علىّ ؟

فيعيدنى صوته إلى الوراء . . وأتذكر أصدقاء الزمن القديم الذين حرصت على مصادقتهم والاقتراب من دنياهم الساحرة ، وأترحم عليهم جميعاً وعلى أيامهم الجميلة .

كانوا جميعاً من أساتذة معهد الموسيقى العربية ، الذين وهبوا حياتهم للحفاظ على التراث العربى وإحيائه . . وكانوا كلهم من مريدى الفنان العظيم ، الذى لم أدركه فى حياته ـ للأسف ـ (زكريا أحمد) ، ولا يكفون عن الحديث عنه . . أمين فهمى الأستاذ الذى لا يُبارى فى العزف على آله القانون ، ومدرس مادته بالمعهد ، ومؤلف كتب التراث الغنائى ،

وإسماعيل رأفت أستاذ الكمان الهاوى الذى أنفق معظم ثروته فى شراء آلات الكمان الأثرية النادرة بمبالغ كبيرة من المال ، وفى نشر التراث والدفاع عنه ، والدكتور إبراهيم زكى خورشيد - وكيل وزارة الثقافة الأسبق ، والمؤرخ والكاتب والمترجم الذى لا يشق له غبار ، والذى شارك فى ترجمة الموسوعة الإسلامية بجهد كبير ، وكان أحد حفَّاظ ألحان زكريا أحمد ، ويجيد العزف على الكمان ، وتفرغ بعد إحالته إلى المعاش لجمعية إحياء التراث العربى ، وتحفيظ شباب فرقتها الأغانى والألحان القديمة الأصيلة .

كان إبراهيم زكى خورشيد شديد الكبرياء والتحفظ مع الغرباء ، حتى كدت أنفر منه حين التقيت به لأول مرة ، لكن أصدقاءه أكدوا لى أن وراء قناع هذا التجهم الصارم روحاً فنانة خالصة ، وأن زكريا أحمد كان يتندر بكبريائه هذه، ويشيع عنه أنه يمشى فى الطريق واضعاً ساقاً على ساق !

وتأكدت من صدق ذلك بالفعل حين بدأت أتردد على بروفات جمعية إحياء التراث العربى . . ورأيته وهو يحفِّظ منشدى ومنشدات الفرقة ألحان الشيخ زكريا أحمد، فدهشت حين سمعت أداءه الجميل ، ورأيت كل قطعة فى جسمه الضخم تتحرك مع النغم الأصيل فى حالة « سلطنة » لا تتناسب مع جهامته ، ولا ما يشيعه عن نفسه من تحفظ وتكبر ، ثم ينزل عن المسرح ، فإذا به يسترد قناع وكيل الوزارة الخطير مرة أخرى فى لحظات ! ، فصبرت على تحفظه إكراماً لروحه الفنانة، وأملاً فى

التعامل مع الجانب الفنى فى شخصيته ، حتى فوجئت به بعد فترة يقول لى أنه سعيد « بإخلاصى » للفن الأصيل ، ثم يعرض علىَّ الانضمام إلى كورال الفرقة، لأنه لاحظ استغراقى فى متابعة الألحان، وتأكد من أن أذنى موسيقية !!، وشكرته معتذراً بالطبع عن تلبية دعوته . . وتخيلت نفسى واقفاً على خشبة المسرح، مرتديا بدلة سوداء ،و هى زى الكورال من الرجال ، أمامى صف من الفتيات فى فساتين شرقية طويلة موحدة اللون ، وفى المواجهة جمهور ذواق للفن ، يسمع ويصدر أحكامه القاسية . . فأصبت بالهلع، وضحكت كثيراً للفكرة بينى وبين نفسى . . ثم كررت اعتذارى له ، فقال لى آسفاً : لا بأس . . إذن فاخدم الفن الأصيل بقلمك ! .

وبالفعل فقد كتبت ونشرت وقتها عدة تحقيقات صحفية عن جمعية إحياء التراث العربى ، أشدت فيها بجهوده للحفاظ على هذا التراث ، وكتبت ونشرت عدة تحقيقات عن حفلات فرقة الموسيقى العربية . . وحفلات معهد الموسيقى ، واكتسبت من صداقتى لهؤلاء الأساتذة العظام شيئاً من الثقافة الموسيقية العربية ؛ فعرفت الفرق بين الدور الغنائى الطويل ، والطقطوقة القصيرة ، وفهمت معنى « التحميلة » التى تعزفها مجموعة صغيرة مختارة من العازفين ، وتبدأ بجملة موسيقية واحدة يعزفها الجميع، ثم يقوم كل عازف بأداء بعض التقاسيم الحرة الجميلة ، وتعود الفرقة لعزف نفس الجملة بعد انتهائه ، ثم يبدأ عازف آخر فاصلاً آخر من التقاسيم ، وهكذا . . . حتى يعزف الجميع

تقاسيمهم المبتكرة ، ثم تختتم المجموعة عزفها بنفس الجملة الموحدة! .

وعرفت الفرق بين هذه « التحميلة » وبين مقطوعة « اللونجا» السريعة التى تعتمد على سرعة العازفين فى العزف ، ولا مجال فيها لأية تقاسيم .

وفهمت معنى عبارة « الهَنْك والرنْك » التى طالما سمعتها تتردد على ألسنة هؤلاء الأساتذة . . عرفت أنها تعنى أن يتوقف المطرب أثناء غناء الدور الغنائى أمام جملة أو كلمة من كلماتها ، ثم يكررها عشرين أو ثلاثين مرة ، وفى كل مرة بلحن ، وأداء مختلفيْن ، والكورس يلاحقه ، أو يكمل له الجملة فى تناغم رائع ، يرتفع بالسامعين إلى ذروة الطرب والانتشاء ، وعرفت منهم أن « الهنك والرنك » هذا هو محك اختبار صوت المطرب وقدرته على التلوّن والتنقل بين طبقات الصوت العليا والمنخفضة .

وفهمت معنى كلمة « الكريشندو » فى الموسيقى ، ومعناها تسارع الموسيقى ، وتصاعدها إلى أعلى الطبقات ، وأدركت الفرق بينه وبين «النيانس » ، وهو تخافت الموسيقى تدريجياً ، حتى تصل إلى ما يشبه الهمس .

وكل ذلك موجود فى الموسيقى الشرقية الأصيلة ، وكنت من قبل أظنه وقفا على الموسيقى السيمفونية التى تتصاعد فيها الآلات أحياناً إلى الذُّرى العليا ، حتى تصل إلى قمتها بدقة « الدونج » الشهيرة ، أو دقة «غطائىْ الحلة » الكبيرين بعضهما ببعض كما كنا نسميها متندِّرين ، أو

تتخافت تدريجياً ، حتى لا نكاد نسمع عزف الآلات من رقتها ، قبل أن تنتفض مرة أخرى وترجع إلى المستويات المتوسطة ! .

عرفت كل ذلك من مصاحبتى وملازمتى لأساطين الموسيقى العربية هؤلاء ، واستمتعت معهم بأجمل أوقات العمر . . وحرصت حين أشرفت على النشاط الثقافى بنقابة الصحفيين فى أوائل السبعينيات على أن أنظم لهم حفلة يقدمون فيها للأعضاء فنّهم الجميل مرة كل شهر، وأطلقت عليها وقتها صالون الموسيقى الشرقية ، وفى هذه الحفلات وفى جلساتنا المسائية كل ليلة بمقهى الفيشاوى، وفى بيت المرحوم مصطفى نصر وكيل معهد الموسيقى العربية وقتها . . حلَّقت مع هؤلاء الأساتذة فى سماوات الفن العلا . . ووجدت نفسى بعد قليل ، ومن حيث لا أدرى أردد آراءهم فى الفن . . وأتحدث مثلهم بازدراء عن المطربين الشبان وقتها، وأصواتهم العرجاء المشروخة، وألحانهم التى لا تعدو أن تكون ضجيجاً فارغاً ، مع أنى كنت فى شرخ الشباب . . ومن الطبيعى أن أميل بذوقى الفنى إلى فن هؤلاء المطربين الشباب ، لكن مصاحبة الكبار طبعتنى بطابعهم . . وكان هؤلاء الكبار يقسمون الناس إلى قسمين . . قسم « البشر » وهؤلاء هم الذين يتذوقون الفن الشرقى الأصيل ، ويدافعون عنه ضد هجوم الموسيقى الغربية الصاخبة . . وقسم« السائمة » وهؤلاء فى رأيهم هم من يتذوقون غُثاء الأغانى الشبابية «وقتها » ويعجبون بعواء مطربيها . . وعويل موسيقاها المزعجة، وآلاتها الحديثة ، ويتفقون ـ رغم ما كان بينهم من اختلافات « فكرية» شديدة ـ

على ازدراء ذوق هؤلاء الدهماء ، ولا يصاحبونهم ولا يسمحون لهم بحضور جلساتهم ، أما خلافاتهم «الفكرية » ـ رغم الصداقة العميقة ـ فكانت تدور دائماً حول مسائل من نوع : هل أخطأ الشيخ زكريا أحمد حين اختلف مع أم كلثوم؛ فتوقف التعاون الفنى بينهما أم أصاب ؟ . . وهل من الخير للفن أن يتوقف « الآن » عبد الوهاب عن الغناء، ويكتفى بالتلحين بعدما أصاب صوته من وَهن . . أم يستمر ؟ ، وهل «سماعى » العريان القديم أفضل من « سماعى » العريان الجديد، أم العكس ؟ ، ومن هو زعيم القراء فى العصر «الراهن» . . الشيخ مصطفى إسماعيل، أم الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ؟ .

وفى هذه الخلافات العنيفة تحفظت دائماً فى إبداء رأيى ، متجنباً الانتصار لرأى أحد هؤلاء الأساتذة ضد رأى البعض الآخر ، إلا مرة احدة تورطت فيها فى إبداء رأيى حين اشتدت المناقشة بينهم ذات ليلة حول سماعى العريان القديم والجديد . والسماعى قطعة متوسطة من الموسيقى العربية، تتكون عادة من مذهب ، أى مقدمة ، ثم مقطعين من الموسيقى ، وتختتم بنفس المذهب . وكان العريان قد ألف سماعيا واشتهر ، فأراد أن ينافسه بسماعى جديد من تأليفه أيضاً ، لكنه لم ينل ما لقِيه السماعى الأول من انتشار ونجاح ، فتدخلت فى المناقشة ، وقلت بحسن نية أننى أحب السماعى الشائع ، ولا أتصور أن هناك ما هو أفضل منه . . فإذا بابتسامة الانتصار ترتسم على وجوه بعض الأساتذة،

وإذا بملامح الضيق والغضب الشديد تتفجر فى وجه أحدهم ؛ فيلتفت إلى بعصبية شديدة ، ويسألنى :

وكيف تحكم بذلك وأنت لم تسمع السماعى الجديد؟ . إنك تجامل «فلانا » برأيك هذا، وتنتصر له لإرضائه على حسابى . . . ثم انزوى عنى غاضباً ، وعبثاً حاولت أن اقنعه أننى لاأقصد ذلك ، وأننى أحكم بما أعلم، ولا علم لى بغيره ، ولكن هيهات أن يرضى أو يصفح . . وظل يتجنبنى بعدها طوال السهرة ، حتى عزمت على الانسحاب من جلساتهم بعد نهاية هذه السهرة ، والاكتفاء بما استمتعت به من صحبتهم قبلها ، ففوجئت به عند انصرافنا ينتحى بى جانباً ، ويطلب منى زيارته فى بيته عصر اليوم التالى لأمر شديد الأهمية ! .

وتحيرت ماذا يمكن أن يكون هذا الأمر شديد الأهمية بعد ما أبداه نحوى من جفاء طوال السهرة . . لكننى رغم ذلك زرته فى بيته عصر اليوم التالى؛ فاستقبلنى بوجه بشوش ، مخالف تماماً للوجه العابس الذى طالعنى به فى سهرة الأمس ، وقادنى إلى الصالون ، ودخلت إلينا بالشاى زوجته المطربة الهاوية ذات الصوت الجميل أيضاً ، وانتظرت أن يفاتحنى فى الأمر المهم الذى تطلب دعوته لى على انفراد ، فإذا به يمسك بالعود ويقول لى أنه سيعزف لى سماعى العريان الجديد الذى لم أسمعه من قبل، لأنه « يعزّ » عليه أن يدع شاباً «مخلصاً » للموسيقى العربية مثلى فى «جهله » بمثل هذه الروائع ، ولكى أحكم بعد ذلك على أيهما أفضل : القديم أم الجديد ، ثم داعب أوتار عودة حتى انتظم فى عزف

مقطوعة موسيقية جميلة لمدة عشر دقائق ، وهو مغمض العينين ، هائم فى دنيا غير الدنيا ، ثم فتح عينيه بعد نهاية العزف ، وسألنى باهتمام شديد، كأنما يتوقف على إجابتى مصير الكرة الأرضية كلها : هيه . . ما رأيك الآن ؟ .

وكنت لم أجد فى السماعى الجديد ما يغرينى بالانحياز له ضد السماعى القديم ، ولم أفهم ضرورة ذلك . . فالقديم رائع وعبقرى ، والجديد جميل أيضاً ، لكنه لا يرقى إلى مستوى القديم ، فلم أملك إلا أن أقول له أننى لم أكن أتصوره بهذه الروعة . . فإذا بالبِشْر يتفجر فى ملامح وجهه ،و ينادى زوجته بحماس شديد ويقول لها بانتصار وافتخار طفوليين : ألم أقل لك يا فلانة أن ظنى لا يخيب فى سلامه ذوق «فلان»؟ . . إن الأستاذ فلان يحاول أن « يبلشفه » ويقنعه بآرائه . . لكن هيهات أن يستطيع ، لأن الفن الأصيل يفرض نفسه، مهما حاول الآخرون غير ذلك !

وتعجبت لإحساس النشوة والأفتخار العجيب الذى يشعر به هذا الأستاذ ، لأنه استطاع أن « يقنعنى » بأن السماعى الجديد أفضل من القديم ، وحرصت على ألا أحرمه منه ، وأن أتجنب بعد ذلك الانحياز إلى رأى أحد هؤلاء الأساتذة ضد آخر ، حتى لا أفقد ترحيب الجميع بى فى دنياهم الساحرة التى عشقتها ، وأريد ألا أطرد منها .

واستمتعت بعد ذلك بصحبة هؤلاء الأساتذة جميعاً سنوات رخية من العمر ،حتى تهيأت للزواج، وتحدد يوم عقد القران ، فتوجهت قبله

بيومين إلى مقهى المالية القديم بميدان لاظوغلى ، حيث كان هؤلاء الأساتذة يتجمعون كل مساء، قبل أن ينتقلوا منه إلى مقهى الفيشاوى ، لكى أدعوهم إلى شهود حفل القران الساهر بعد يومين ، فما إن اقتربت من المقهى ، حتى نهض المرحوم إسماعيل رأفت من مقعده . . ونزل إلى الرصيف ليلتقى بى قبل أن أقترب من مائدة الشلة ، وبادرنى بقوله : البقية فى حياتك فى المرحوم أمين فهمى ! .

ياإلهى . . لقد جئت لأدعوه إلى حفل قرانى مع زملائه ، فإذا بيد القدر تسبقنى إليه ، ويرحل عن الحياة هذا الفنان الطيب المتدين، الذى اعتدت توصيله كل ليلة بعد سهرة الفيشاوى بسيارتى إلى ميدان لاظوغلى ، وأسأله عن بيته بالتحديد لأوصله إليه، فيرفض الإجابة بإصرار ، مكتفياً بأنه يسكن فى الجوار ، ولا داعى لإرهاقى أكثر من ذلك ، وكذلك كان يفعل مع الجميع . . فلم يعرف أحد أبداً عنوانه . . ولا هل هو أعزب وحيد كما يبدو للجميع، أم متزوج ، فإذا بنا نكتشف بعد وفاته أنه زوج وأب لابنة وحيدة طالبة بكلية دار العلوم ، ونكتشف أيضاً أنه يقيم فوق مقهى المالية نفسه ، ومع ذلك . . فلم يعرف أحد عنوانه إلا بعد رحيله عن الحياة ، وزرت مع صديقى الأديب أحمد بهجت أرملته وابنته ، وقدمنا لهما عزاءنا الحار فى الصديق الفنان .

وافتقدت مشاركة أمين فهمى لى فى حفل القران ، كما افتقدت أيضاً مشاركة كل هؤلاء الأساتذه العظام الذين تراجعت عن دعوتهم حين علمت بنبأ وفاته ، لعلمى بأنهم يقضون جميعاً فترة حداد على صديقهم الراحل .

ثم شغلتنى ظروف الحياة والزواج عنهم ، وانقطعت عن جلساتهم بعد ذلك، ونعاهم الناعى لى واحداً بعد الآخر ، حتى رحلوا جميعاً عن الحياة، وانقضت أيامهم الجميلة . . ودنياهم الراقية المحلقة فى سماوات الفن والثقافة ، وتراجعت ذكراهم عنى شيئاً فشيئاً مع اشتداد سباق الحياة والعمل ، حتى سمعت منذ أيام صوت عباس البليدى يرجو «الجميل » أن « ينظر » إليه بعين العطف والرحمة؛ فإذا به يعيدهم جميعاً إلى وجدانى وقلبى، ويجدّد حنينى إليهم، وإلى الأيام السعيدة التى لا تعود .

رحمهم الله جميعاً ، وأثابهم خير الثواب عن حياتهم الفاضلة العفيفة . . وإخلاصهم النادر للفن الأصيل ! .

خلف النافذة

هل تذكر ذلك الفيلم الأمريكى القديم الذى كان يحمل فى نسخته الأصلية اسم النافذة الخلفية وقدم إلينا فى دور العرض بالقاهرة منذ أكثر من عشرين عاما تحت اسم «خلف النافذة؟» .

لقد كان هذا الفيلم ـ الذى أدى دور البطولة فيه النجم الأمريكى القديم جيمس ستيورات ـ يحكى قصة مصور صحفى شاب ، أصيب فى حادث بكسر مضاعف فى ساقه ، ودخل إلى المستشفى لتجبيرها ، وغادره ليقضى فترة النقاهة وحيداً فى مسكنه ، فراح يسلّى أوقات وحدته الطويلة بالجلوس فوق الكرسى المتحرك وراء النافذة الخلفية المطلة على منور العمارة الضخمة ، ومراقبة أحوال سكان العمارة ، وتأمل علاقاتهم ، فرأى الزوجة صغيرة السن التى تتدلل على زوجها المُسن ، ورأى الفتاة التى تمضى أكثر أوقاتها فى الرقص وأداء التمرينات الرياضية، ومحاولة لفت نظر شاب وسيم من جيرانها ،ورأى الشاب المتعاجب، الذى لا تحلو له ممارسة الرياضة واستعراض عضلاته المفتولة إلا فى شرفة البيت ، والزوجين اللذين يتبادلان العطف والحب ،

والزوجين الآخرين اللذين يتبادلان الكراهية الصامتة والجفاء إلخ ، إلى أن شاءت له الظروف أن يشهد لحظة قدرية ، تحدّد خلالها مصير إنسانة، وكادت نفس هذه اللحظة أن تحدد مصيره هو نفسه ، فقد رأى من نافذة إحدى الشقق رجلاً يعتدى بالضرب على سيدة شابة ، لعلها كانت تجمعها به قصة حب سابقة ، وانتهت من جانب المرأة، فطاردها الرجل وانفعل الاثنان فى المناقشة ؛ فهوى عليها بقبضته، وسقطت على الأرض ، فواصل ضربها بشىء ثقيل ، حتى لفظت أنفاسها الأخيرة . وجرى كل ذلك أمام أنظار المصور الشاب فى جلسته خلف النافذة ، فلم يجد ما يفعله سوى أن يسجل الجريمة لحظة بلحظة بكاميرته الصحفية ، ولمحه القاتل وهو يصوب الكاميرا إليه ، فسعى إليه فى مسكنه ليقتله ، ويقضى على شاهد العيان الوحيد على جريمته . وبعد صراع طويل بينه وبين المصور القعيد، أنقذته العناية الإلهية من براثن القاتل ، ووصلت الشرطة التى استنجد بها المصور فى الوقت المناسب ، فأنقذته فى اللحظة الأخيرة .

هل تذكر هذا الفيلم ؟ . لقد شهدت أنا أيضا ـ من حيث لا أرغب ـ لحظة قدَرية مماثلة . . لم أسجلها بكاميرتى كما فعل ذلك المصور الشاب، لكنى سجلتها بكاميرا الذاكرة ، فانحفرت فى ذاكرتى، وظلت تطاردنى بإيحاءاتها الكئيبة لفترة طويلة من حياتى .

فلقد كنت فى ذلك الوقت أقيم فى شقة صغيرة من غرفتين فى حى قريب من جامعة القاهرة التى تخرجت فيها قبل عام واحد ، وكنت أمر

وقتها بمرحلة كئيبة من مراحل حياتى ، فلقد رحل أبى ـ يرحمه الله ـ عن الحياة قبل أيام، وأنا فى الواحدة والعشرين من عمرى ؛ فتزلزل كيانى كله ، ورجعت بعد أيام العزاء فى مدينتى الصغيرة، إلى عملى بالأهرام وحياتى بهذه الشقة الصغيرة ، فثقلت على وحدتى فيها ، وجفانى النوم ، فكنت لا أستسلم له كل يوم قبل أن تشرق الشمس، وأنهض من فراشى مفزوعاً بعد ساعتين أو ثلاث ، فأهرول مغادراً الشقة إلى عملى ، وأقضى يومى كله فى العمل ، وربما غلبنى الإجهاد من أثر قلة النوم ، فلا أرجع للشقة لكى أستريح بعض الوقت فيها ، وإنما أستسلم ـ لبعض الوقت ـ لنوم متقطع على مكتبى عند الأصيل ، ثم أنهض لأغسل وجهى ، وأبحث عن صحبة الزملاء والأصدقاء لتشغلنى عن هواجسى وأحزانى ، ولا أرجع إلى المسكن الخالى إلا بعد الواحدة صباحاً، ولا أجد ما أفعله فيه سوى الاستغراق فى القراءة ، إلى أن يترفق بى ملاك النوم بعد عذاب طويل .

وكانت شقتى هذه تقع فى الدور الأرضى، فوق بدروم مقسم إلى غرف مستقلة ، تقيم بكل غرفة منها أسرة من أسر العمال والحرفيين ، وكنت فى أوقات الصفاء أطلق على سكان هذا البدروم تعبير « الناس اللى تحت » ، إشارة إلى مسرحية نعمان عاشور الشهيرة التى كانت تحمل نفس الاسم ، كما كنت أتأمل حياة هؤلاء الناس . . وأعايش شواغلهم وهمومهم على البعد ، فقد كانت أصواتهم تتسلل إلىّ رغماً عنى عبر النافذة الخلفية لغرفة نومى المطلة على منور العمارة ، وكان هذا المنور هو

مستراح سكان هذا البدروم فى الصيف ، تتسامر فيه الزوجات والبنات فى الأصيل ، ويجتمع فيه الرجال فى المساء ، فإذا تحدثوا . . . سمعت كل ما يقولون ، وكأنهم يجتمعون فى غرفتى .

ومن هذه النافذة الخلفية سمعت نبأ اختفاء الإبنة الكبرى لأسرة عامل بمحل بقالة ، وولولة أمها عليها وندبها لها : بعد أن كبرت ؟ بعد أن كبرت تتركنا وتذهب إلى حيث لا نعرف ؟ . ومن هذه النافذة أيضاً سمعت بنبأ عودتها إلى أسرتها بعد أيام حين اكتشفت خداع الشاب الذى أغواها بالهرب معه ، ومراوغته لها فى الزواج منها ، وكيف أبت أن تسلمه نفسها ، وفضلت أن ترجع لأبيها «ولو ذبحها » ، على أن تمضى معه فى طريق الضياع .

وسمعت الكثير والكثير . . حتى ألِفت أصوات هؤلاء « الناس اللى تحت »، واعتدت أن أميز شخصياتهم منها، كما ألفت أن أسمع أحدهم يوقظ زوجته من نومها فى الخامسة من صباح كل يوم ، لكى تذهب إلى المخبز القريب وتشترى منه كمية محددة من أرغفة الخبز ، لتقوم بتوزيعها كراتب يومى على بعض الأسر ، وبعض مطاعم الفول، وتُعين زوجها بهذا الرزق الشحيح على حياة أسرتها ، كما ألِفت سماع سيدة أخرى وهى توقظ زوجها باحترام شديد، لكى يذهب إلى عمله فى محل البقالة ، وكيف ينهض الرجل كل يوم ويقول لزوجته بوقار يليق بالعظماء : صباح الخير يا فلانة ! كما ألِفت أن أسمع أيضاً معاتبة زوجة طيبة لزوجها الوسيم المتعاجب، الذى ينفق بعض دخله كعامل نقاشة

على شراء زجاجة من أردأ أنواع الخمور من حين لآخر ، وتذكيرها له برفق بأن أبناءه أحق بثمن هذا السم الذى يضر بصحته .

وإذا لمزت بعض الزوجات هذه الزوجة الطيبة فى مجلس الأصيل فى مستراحهن بالبدروم ، ونَوَّهْنَ بتكاسل زوجها عن العمل؛ حتى لتضطر هى للعمل نيابة عنه فى بعض الأيام لتلبى مطالب الأسرة ، سمعت نفس هذه الزوجه تدافع عنه بحرارة فى غيبته ، وتلتمس له العذر فى خلافاته مع مقاول العمل وتنفى عنه كل تقصير ، فتضحك الزوجات ، ويغمزنها بأنه « الحب » الذى يغفر له عندها كل نقيصة ! .

إلى أن كنت فى فراشى ذات ليلة أقرأ فى كتاب ما زلت أذكره حتى الآن هو كتاب « عشرة أيام هزت العالم » للصحفى الأمريكى جون ريد ، الذى شهد قيام الثورة البلشفية فى روسيا فى أكتوبر عام ١٩١٧ ، فإذا بى أسمع دبيب الحياة يتسلل إلى بدروم «الناس اللى تحت» مع صوت الرجل الذى يوقظ زوجته بائعة الخبز كل صباح . وترقبت أن أسمع نداءه التقليدى لها مرتين أو ثلاثا ، ثم تنهض الزوجة وتستعيد نشاطها ، وأسمع وقع أقدامها وهى تغادر البدروم . ولم يتأخر النداء عن موعده ، لكنى لاحظت هذه المرة أن صوت الرجل يعلو أكثر من المعتاد ، وهو يقول لها :

ـ يا فلانة . . يا فلانة . . اصحى قبل أن يفوتك موعد « الراتب »! .

ولم أسمع صدى للنداء ، وإنما سمعت الرجل يعود لمحاولة إيقاظها بصوت أعلى ، وبشىء من الضيق :

ـ يافلانة مضت ربع ساعة وأنا أحاول إيقاظك . ماذا جرى لك ؟

ولم أسمع للمرة الثانية أى إجابة . وواصل الرجل الإلحاح على زوجته للاستيقاظ ، وقد ازداد ضيقاً بكسلها ، فصاح :

ـ وبعدين معاك يافلانة . . هل تنامين طول النهار ؟ . . ألف مرة طلبت منك أن تنامى مبكراً ، لكى تستيقظى بسهولة ، بدلاً من هذا العذاب كل يوم .

اصحى يا امرأة !

لكن الزوجةواصلت الاستسلام ـ فيما يبدو ـ لسلطان النوم اللذيذ، ولم تستجب للنداء، فازدادت نبرة الضيق فى صوت زوجها ، ومدَّ يده إليها فيما يبدو ليهزها بعنف ، وهو يقول :

ـ يافلانة اصحى . . اصحى . . ماهذا الوخم ؟ . والله لئِن لم تستيقظى الآن ، لأتركنك وأخرج إلى عملى . . وذنبك على جنبك . .

وفى كل مرة يصيح الزوج منادياً زوجته يتشتت تركيزى فى القراءة ، فأضيق بهذه المقاطعة ، لكنى أعزّى نفسى بأنها لن تطول . . ولن تلبث الزوجة أن تنهض من نومها معتذرة ، ثم يخرج الزوجان طلباً للرزق ، ويحل الهدوء . . فتشاغلت عن هذه المقاطعة ، وعدت للتركيز فيما أقرأه . . فإذا بى أشعر بشىء طارىء يلفت انتباهى ، ويدفعنى دفعاً لمتابعه هذا « المسمع » الذى اقتحم علىَّ خلوتى ! . . فلقد تحولت نبرة صوت الرجل من الضيق إلى شىء من القلق ، وهو يقول :

ـ يافلانة . . يا فلانة . . ماذا جرى لك اليوم ؟ . اصحى . . يابنت الناس اصحى .

ثم ازدادت نبرة القلق فى صوته ، وخالطها لأول مرة شىء جديد من الخوف ، فسمعته يقول :

ـ يا فلانة . . يا فلانة . . يافلانة . . استر يارب . . استر يارب .

فتسلل بعض هذا القلق من صوته إلىّ ، ووجدتنى أضع الكتاب جانباً ، وأركز كل انتباهى معه وهو يحاول إيقاظ زوجته ، وأترقب بلهفة اللحظة التى تستجيب فيها للنداء ، أما هو ، فقد واصل النداء على زوجته بخوف متزايد ، وقد عادت إلى صوته من جديد نبرة الرفق والعطف ، واختفت نبرة الضيق والتهديد ، إلى أن سمعته فجأة يصرخ : الحقونى ياناس . . الحقونى ياناس . . فلانة ماتت . . فلانة ماتت . . لا حول ولا قوة إلا بالله . . لاحول لا قوة إلا بالله . .

ثم ينفجر فى الصراخ والعويل والولولة . . وتتصاعد الأحداث فى هذه اللحظة القدرية المؤلمة ، فأسمع وقع خطوات تهرول، وأصوات رجال ونساء يتحدثن . . وأسمع الرجل ـ الذى كان قبل لحظات ينهر زوجته ساخطاً لكى تنهض من نومها ـ يولول متشكيا ويقول : أين أذهب بأولادى الخمسة ياربى . . لماذا تركتينى فى نصف الطريق يافلانة؟ ، والجيران من سكان البدروم من حوله يهدئون من روعه ، ويشدون أزره ، وقد خَيَّمَ على المكان كله ظل ثقيل من الكآبة والوجوم ،

فلقد كانت الزوجة المكافحة بين يدى خالقها منذ وقت لا يعلمه إلا الله، وزوجها يحاول إيقاظها لتخرج إلى الحياة وتواصل الكفاح فيها من أجل الرزق ! .

وكان من سوء حَظى أن شهدت هذه اللحظة القدرية بكل مفارقاتها المؤلمة ؛ فضاعفت من اكتئابى وضيقى وأحزانى، ويئست من أية محاولة للنوم بعد ذلك ، فارتديت ملابسى، وغادرت مسكنى فى السادسة صباحاً ، لأذهب إلى عملى بلا نوم .

ورأيت وأنا أغادر العمارة الرجل المنكوب يقف أمام مدخلها يبكى بين عدد من جيرانه ، فتقدمت منه بلا سابق معرفة وواسيته فى مصيبته ، وسمعته وأنا ابتعد عنه يقول لمن معه :

ـ ظللت أوقظها من النوم ساعةً طويلةً بغير أن تتحرك ! .

ولأيام بعدها . . عجزت عن النوم فى هذا المسكن الخالى ، فحملت حقيبتى منه، ونزلت ضيفاً على أحد أقاربى فى حى بعيد ، وكلما خلوت إلى نفسى. . سمعت صوت الرجل فى مخيلتى وهو ينهر زوجته «لكسلها» و « وخمها »، ثم وهو يولول عليها بعد لحظات أخرى ، معلنا رحيلها عن الحياة .

لقد كانت لحظة قدرية فريدة ، قدر لى أن أعايشها كما عايش ذلك المصور الصحفى الشاب جريمة قتل جارته الشابة من خلف النافذة ، ولو عايشها معى أمير القصة القصيرة (أنطون تشيكوف)، لنسج من

أحداثها قصة تعيش مع الزمن ، أما أنا . . فقد لاحقتنى لفترة طويلة وأرقتنى ، ثم سقطت فى دائرة اللاوعى ، وظلت كامنة فيه ، إلى أن طفت إلى سطح الذاكرة منذ فترة قريبة ، ووجدتنى أرويها لك ! .

.. ولنا الألم !

متى قرأت هذا التعبير ؟ لا أتذكر . أين قرأته ؟ فى الموسوعة الإسلامية الميسرة التى أعدتها الأكاديمية الهولندية الملكية بإشراف المستشرق جِب وزميله كالمرز . لماذا اتذكره الآن كثيراً ؟ لأنه ينطبق على حالى وأنا أكتب هذا المقال بأشد مايكون التماثل .

فلقد جاء فى إحدى الروايات أن الله قد خيَّر لقمان بين النبوة والحكمة ، فاختار الحكمة ، وأصبح وزيراً للملك داود ، الذى رحب باختياره وقال له : لله الحكمة ، ولنا الألم .

أما متى تذكرت العبارة بشدة . . فلذلك قصة بدأت أول أيام عيد الأضحى المبارك منذ بضع سنوات . . فقد صحوت من نومى موجوعا بنفس الألم القاسى المُذِل الذى يعاودنى منذ حوالى عام، ويهاجمنى فى بعض الفترات ، فيحيل أيامى إلى جحيم ، ويهدأ فى فترات أخرى . . فأنساه وأعدل عن فكرة الجراحة التى لا علاج لمشكلتى معه سواها .

نعم، لا مفر من الجراحة ... ولكن متى؟ . . وحَتّامَ سوف تعطلنى عن عملى وواجباتى الصحفية ؟ . . وماهو الوقت الأنسب

لإجرائها . . ؟ . هذا ما كان يشغلنى حين اصطحبنى صديق إلى عيادة طبيب معروف ، قال لى عنه أنه يجرى هذه الجراحة بالليزر فى عيادته . . ويخرج المريض منها بعد ١٥ دقيقة صحيحاً معافى سائراً على قدميه، فيستريح يوماً واحداً فى بيته ، ثم يعود ليواصل نشاطه وحياته كأى إنسان سليم ! . ماذا أريد أكثر من ذلك ؟ .

توجهت معه إلى الطبيب، وفحصنى . . وقرر أن يعطينى علاجاً لمدة أسبوع ، فإذا لم تتحسن الحالة ، عدت إليه مساء الخميس السابق لعيد عيد الأضحى ، لأجرى الجراحة بالليزر وأتخلص من متاعبى .

تناولت الدواء فلم تتحسن حالتى . . مازال الألم القاسى يذّلنى ، فأصرخ طالباً حقنة مسكنة . لا مفر من الجراحة إذن . . لكن مابال الأطباء من أصدقائى يشككوننى جميعاً فى جدوى هذه الجراحة باستخدام الليزر؟ ، ويقولون لى أن نسبه نجاح الليزر فيها ضعيفه جداً ، وأن الجراحين قد عادوا الآن للجراحة التقليدية بالجفت والمشرط ، رغم متاعبها ، لأنها العلاج الناجح لهذه المشكلة . .

ترددت مرة أخرى . . وجاء صباح عيد الأضحى بهجمة جديدة من هجمات العذاب وكنت جالسا وحدى فى مكتبى . . فبحثت عن رقم تليفون جراح صديق وعضو زميل لى وقتها فى روتارى مدينة نصر لأسأله عن مسكّن قوى يعيننى على احتمال الألم . ولاضطرابى . . لم أجد الرقم فى أجندتى . . فاتصلت بصديق مشترك بيننا ، هو الفنان سمير. . . .

وهنأته بالعيد في لهوجة ، وسألته عن رقم تليفون الدكتور صلاح . . . . ، وغاب لحظة ليحضره ، وفتحت أجندتى على صفحة الصاد لأسجله ، فإذا بى أجد الرقم مدوَّنا عندى ، فتظاهرت بتسجيله ، وشكرت صديقى ، واتصلت بصلاح ، فطال رنين التليفون دون أن يجيب أحد . . ياهؤلاء الأطباء . . لا يفوِّتون فرصة إجازة بغير السفر خارج القاهرة . . وليس لمثلى سوى الصبر والانتظار .

أمضيت أول أيام عيد الأضحى فى أسوأ حال . . وقررت انتظار انتهاء إجازة العيد ، لأذهب إلى طبيب الليزر ، وأجرى الجراحه لديه . . فمن يدرى؟ ، ربما نجحت ووفرت علىّ عناء الجراحة التقليدية .

صحوت من نومى ثانى أيام العيد مبكراً ومتألماً ، جلست إلى مكتبى أقرأ وأكتب ، وأحاول التشاغل عن أوجاعى . . فرن جرس التليفون ، فإذا به سمير ـ الذى لا يصحو من نومه قبل العصر ـ يحدثنى فى العاشرة صباحاً ، ويسألنى : هل اتصلت بالدكتور صلاح ؟

ـ نعم ، لكنه مسافر خارج القاهرة فى إجازة العيد .

ـ لا ، إنه موجود فى القاهرة ، وقد اتصل بى مساء أمس ، وعرف أنك تبحث عنه ! .

عرفت فيما بعد من تطور الأحداث لماذا عَمِى علىّ رقم صديقى الطبيب ، وهو موجود أصلاً فى أجندتى ، فسألت عنه صديقى الفنان . . فلقد أراد الله ـ وله الحكمة ـ أن يعرف سمير أنى أبحث عنه ، لكى

ينبهنى إلى أنه فى القاهرة ، ولو كنت قد اتصلت به من تلقاء نفسى ، ولم يجب التليفون؛ لتأكدت من أنه مسافر فى الإجازة . ولم أحاول البحث عنه بعدها ، لكن هكذا شاءت إرادة الله ، لكى تمهد لما سوف يحدث بعدها من وقائع .اتصلت بصديقى صلاح ، ورويت له متاعبى، وسألته عن حل مؤقت لها ،ففاجأنى بقوله : لا حل إلا الجراحة . . واستطيع أن أجريها لك الآن على الفور ، وتعود إلى بيتك بعد ٦ ساعات . . وتتخلص من كل متاعبك ! .

ـ الآن . . يا دكتور ؟

ـ نعم الآن، وفوراً .

ـ لكن اليوم الثلاثاء ، وأنا أكتب بريد الجمعة يوم الأربعاء من كل أسبوع فى جلسة متصلة لمدة ١٢ ساعة ، فكيف سأستطيع ذلك إذا أجريت الجراحة اليوم ؟

ـ ستكتب بريد الجمعة فى موعدك . . وستكون فى أفضل حال . . فقط احزم أمرك . . واتصل بى حين تنتهى من ارتداء ملابسك .

فكرت قليلاً . . ثم قلت لنفسى : لو لم يرد الله لى أن أجرى هذه الجراحة فى هذا اليوم بالذات . . لما مضت الأمور على هذا النحو العجيب . . إذن على بركة الله . الساعة الآن الحادية عشرة صباحاً . زوجتى وابنى وابنتى مازالوا نائمين ولا أريد إزعاجهم بأمرى، فاتصلت بسائقى فى بيته ، وطلبت منه الحضور فى أسرع وقت لأمر مهم .

وتسللت إلى غرفة النوم، وارتديت ملابسى ، محاذراً إيقاظ زوجتى . . ثم تحركت فى هدوء إلى باب الشقة ، وقبل أن أصل إليه بخطوة ، فاجأنى صوت زوجتى من الخلف : إلى أين ؟ فتلفّت إليها متظاهراً بالشكوى ، وقلت لها أننى قد استُدعيت إلى الأهرام لعمل مفاجىء فى إجازة العيد . . سأحاول الانتهاء منه سريعاً والعودة فى موعد الغداء . وتوجهت إلى المستشفى. وفى الطريق صارحت السائق الذى جمعت بينى وبينه العشرة والعلاقة الإنسانية منذ سنوات بالأمر . . وطلبت منه أن يكون معى فى وقت الجراحة ، وأن « يتصرف » إذا حدث شىء طارىء ؛ فارتعب وارتبك . . وراح يردد آيات الشفاء بصوت عال، ويطلب منى أن أرددها وراءه . . « وإذا مرضت فهو يشفين » ، «فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » ، « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » الخ . وأجبته إلى ماطلب . . وتذكرت أننى قد رددت حين غادرت باب مسكنى الآية التى يستريح قلبى إلى ترديدها كلما غادرت بيتى إلى سفر، وهى « إن الذى فرض عليك القرآن لرادُّك إلى ميعاد » ، وأعدت ترديدها مرة أخرى خلال الطريق.

ووصلنا إلى المستشفى، فلم أكد أدخله، حتى لاحقنى صديقى الجراح. وصعدنا معا إلى الدور الأول، حيث غرفة العمليات . وأدخلنى غرفة ، وأعطانى رداءً معقماً، وطلب منى أن أخلع ملابسى وأرتديه. وفعلت ، وارتدى هو ملابس الجراحة ، واقتربنا من باب حجرة العمليات . . هل كنت خائفاً . . .؟ نعم. هل كان وجهى ممتقعاً

ولونى أصفر ؟ مؤكد . . فهذه هى المرة الأولى التى أدخل فيها غرفة العمليات فى حياتى . . والخوف إحساس إنسانى طبيعى، لا يخلو منه حتى الأبطال الشجعان .

صعدت إلى مائدة العمليات، وبدأت عملية التخدير النصفى كما طلبت، وأيدنى فى ذلك طبيب التخدير الشاب، مؤكداً لى أنه لا يتمسك بالتخدير النصفى إلا أصحاب الثقافة العالية ! .

سرى المخدر فى جسمى بادئاً بالقدمين ، ولم تمض لحظات حتى فقدت الإحساس نهائياً بنصفى الأسفل . . وجلس الدكتور صلاح يؤدى عمله، وحوله المساعدون ، وهو يحدثنى وأحدثه، وطبيب التخدير يشاركنا الحديث ، والجو جميل ، والممرضات باسمات، وجو الألفة والترحيب يظلّل المكان . . وأنا لم أعرف أن الجراحة قد بدأت، حتى سألت الدكتور صلاح : هل بدأت الجراحة؟ ، فأجابنى بأنه كاد أن ينتهى منها ! .

ومَضَى نصف الساعة فى لمح البصر ، وفوجئت بالابتسامات تتسع ، والجميع يقولون لى : مبروك ، انتهت الجراحة . ياإلهى . . ما أشد خوف الإنسان على نفسه من الألم . . أهذه هى الجراحة التى ترددت فى إجرائها عاماً طويلاً كابدت فيه العذاب ألواناً ؟! . إننى محمول الآن على ترولى صغير إلى غرفتى، وسائقى الطيّب مازال يتمتم بآيات القرآن . . ويهنئنى بنجاح العملية .

وجاء صديقى الجراح، وجلس إلى جوارى فى الغرفة ، وواصلنا المناقشة ، كأننا فى اجتماع من اجتماعات الروتارى . . والشاى لذيذ . . والكلام جميل . . والوعد صادق ، فالأمر كله لن يستغرق ساعات ، ثم أستعيد قدرتى على الحركة . . وأعود إلى بيتى صحيحاً معافى وأفاجىء أسرتى بأنى قد أجريت الجراحة ، وأتحمل اللوم والعتاب ، لأنى لم أخبر أحداً بنيتى المبيتة .

وانتهى صديقى د. صلاح من تناول الشاى والحديث، واستأذننى فى العودة إلى بيته ، على أن يرجع إلىَّ فى المساء قبل انتهاء تأثير المخدر ليحقننى بالمسكنات ، فلا أحس بأى ألم للجراحة . وشكرته، وطلبت منه أن ينقل اعتذارى لزوجته على « اغتصابى » له منها فى إجازة العيد .

وخلوت بنفسى ، وفكرت فى أن أخفف عن نفسى لوم أسرتى ، فطلبت من سائقى أن يحضر زوجتى وأولادى ، بعد أن يطمئنهم على نجاح الجراحة . . ولم يَمْضِ نصف ساعة، حتى دخلوا علىّ منزعجين، ولائمين : وحدك . . فى غرفة الجراحة ؟! أليس لك أهل ؟ أليس لك أصدقاء ؟ .

وقابلت عاصفة اللوم والعتاب . . بالفهم والاعتذار، ومحاولة تغيير مجرى الحديث. وانشغلنا بمتابعة التليفزيون بعض الوقت . . مازال إحساسى بنصفى الأسفل منعدماً ، ثم شيئًا فشيئًا بدأت أسترد الإحساس به جزئيا . وبدأ الإحساس من القدمين أيضا ، كما بدأ التخدير بهما . . وازداد إحساسى شيئاً فشيئاً . . حتى بدأت أستطيع

تحريك الساقين . . وراح أثر المخدر يتلاشى تدريجياً وأنا سعيد ومطمئن . . أترقب اللحظة القريبة التى سأتحرك فيها بعد قليل لأعود إلى بيتى ، وفجأة أحسست بسيخ من حديد متوهج بالنار يخترق جسمى فى موضع الجراحة . . آه . . ما هذا . . ؟ . حاولت التماسك أمام أبنائى . . لكن كيف يحتمل الإنسان سهما ناريّاً مرشوقاً فى جسمه ؟ . أين الدكتور صلاح . . ؟ أين المسكنات . . ؟ . وهرولت الممرضة تحقننى بالمسكن ، ولكن بعد فوات الأوان . . فلقد شاءت إرادة الله ـ وله الحكمة ـ أن يقع خطأ بسيط ؛ فانتهى مفعول المخدر فى جسمى قبل أن يعاد حقنى بالمسكنات . . لهذا . . فلن تبدأ المسكنات أثرها ، إلا بعد أن يكون الألم المدمر قد افترسنى من جديد .

جاء الدكتور صلاح مهرولاً وفوجىء بمعاناتى القاسية ، وانزعج ، وحاول تدارك الأمر بحقنى بمسكنات أقوى فى الوريد . . لكن هيهات أن يسيطر شىء على وحش انطلق من عقاله ، قبل أن يلجمه أحد بالمسكنات فى الوقت المناسب . . حقنة . . وراء أخرى . . والمعاناة كما هى ، وجسمى ينتفض برعشة لا إرادية ، لا أستطيع السيطرة عليها ، والضغط يرتفع وينخفض ، وضربات القلب تتزايد . . ولم يعد هناك مفر من المبيت فى المستشفى لأكون تحت رقابة الأطباء . . وآهات الألم أحس بها فى ضلوعى قبل أن أحاول كتمانها فى حلقى . . والدكتور صلاح لا يكف عن المحاولة . . ويغير أنواع المسكنات . . وأخيراً أخيراً

. . قرب منتصف الليل ، أحسست بألم فى حدود الاحتمال ، وجلس الدكتور صلاح إلى جوارى آسفا وهو يقول :

ـ لم يكن من المفروض أن تتحمل هذا العذاب . لقد أخطأنا تقدير فترة المخدر . . وكان ينبغى أن يبدأ حقنك بالمسكنات قبل انتهاء مفعولها بساعة . . إنى آسف على هذا الخطأ . ووجدتنى أقول له صادقاً :

ـ لو لم يكن مكتوباً لى فى اللوح المسطور أن أتعذب بالألم طوال هذه الساعات . . ما كان المخدر قد انتهى أثره قبل موعده . . لكنها إرادة الله ... ولا راد لمشيئته . . وإذا كان رسولنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يقول : « ما من شوكة تصيب المؤمن ، إلا ويرفع الله بها درجاته ، أو يغفر له بها من ذنوبه » ، فإنى لا أطمع فى أن يرفع الله درجاتى بما تعذبت به ، لكن أملى فى رحمته أن يغفر لى به من ذنوبى ، ما يخفف عنى بعض أوزارها .

وانصرف الدكتور صلاح بعد منتصف الليل . . وبقيت مؤرقاً رغم المهدئات والمسكنات . وفى الثالثة صباحاً هاجمتنى نوبة جديدة من الألم الوحشى ، فاستدعت زوجتى الممرضة على عجل لتحقننى بحقنة رابعة أو خامسة من المسكِّن . . وأخيراً استطعت النوم لعدة ساعات .

والرحلة القصيرة التى تصورت أنها ستستغرق ساعات ، ثم ينتهى كل شىء ، قد طالت يوما وليلة ، والراحة الموعودة التى انتظرتها بعد

الجراحة ، ابتداء من اليوم التالى لها كما قيل لى - أكتب مقالى هذا فى اليوم العاشر بعد الجراحة - لم تأت بعد ، ولم أتخلص نهائياً من آلامى . وقد عانيت فى الأيام التالية للجراحة آلاما لم أكن أتصور أن فى طاقتى كبشر أن أتحملها ، لكننى تحملت وتصبَّرت . . وصديقى الطبيب الجراح زارنى فى البيت مرات ومرات . . وسألته ذات مرة : هل يتألم من يجرون جراحات الزائدة الدودية أو القلب، أو الكلى كما تألمت ؟ . . ففاجأنى بقوله : أنه ليس فى عالم الجراحة كله جراحة مؤلمة بنفس درجة إيلام جراحتى الصغيرة هذه ، رغم تفاهتها ، لأنها فى منطقة تتجمع فيها كل أعصاب الإنسان ، ولا يمكن حمايتها من الاحتكاك الذى يولد الألم .

وقلت لنفسى حين سمعت منه ذلك . . فيم كان إذن التهوين ، وكانت الوعود الوردية بالراحة السحرية بعد ساعات ؟ ، لكنى تراجعت عن تساؤلى سريعاً ، وقلت لنفسى : وهلى كان من الممكن أن أقبل إجراءها لو كان صديقى الجراح قد صارحنى من البداية بكل ما كان ينتظرنى بعدها ؟ . إنه ليس تهوينا ، وإنما تشجيع ، وليس «غرور الأطباء» كما تصورت الأديبة عائشة التيمورية ، حين قالت فى رثاء ابنتها :

جاء الطبيب وبشَّر بالشفا

إن الطبيب بطبِّه مغـرور

وإنما هى طبيعة المهنة التى تفرض نفسها على من يمارسها .

وطالت آلامى واستطالت . . وخففت عنى بعضها مشاعر الود من

أصدقاء وزملاء أفاضل، أحاطونى بمجاملاتهم الكريمة . وفى غمارها فوجئت بخبر تعيينى عضواً بمجلس إدارة مؤسسة الأهرام . وتوالت الاتصالات التليفونية تواسى فى المرض، وتهنئنى بالخبر . وفى إحداها جاءنى صوت الجراح الصديق يهنئنى، وكنت قد غادرت الحمام لتوى متألما ، واستلقيت فى الفراش ألتقط أنفاسى ، فقال لى :

ـ مبروك دخولك مجلس إدارة الأهرام .

فوجدت نفسى أجيبه ـ بلا وعى ـ بأن دخول الحمام الآن بغير ألم ، أهمُّ عندى من دخول مجلس الأهرام ، أو حتى مجلس الأمن ! .

وضحك الجراح الصديق طويلاً . . ولم أضحك أنا . . ولم أكن كاذباً ، بل كنت صادقاً مع نفسى . . . إذ ماذا يساوى أى شىء فى الحياة، والإنسان يتألم ويتوجع؟! .

وإذا كانت عقول البشر قد عجزت حتى الآن عن فهم حكمة الألم الإنسانى ، فلقد تعلمنا أن نقف عند حد الأدب أمام ما تعجز مداركنا المحدودة عن فهم أسرار الحكمة الإلهية فيه ، وأن نرجع قصورنا عن فهمها إلى عقولنا القاصرة . . وليس إليها .

لهذا كله . . تذكرت عبارة داود النبى خلال الأيام الماضية كثيراً ، ورددتها لنفسى مراراً ، ورددت معها دعواتى الصادقه بأن يشفى الله كل مريض فوق ظهر الأرض .

والحمد لله على كل حال .



أشجان عابرة !

ألا يحدث لك أحياناً أن تلتقى بإنسان تعرفه ،أو لا تعرفه ، وتسمعه يتحدث إلى غيرك بأمره؛ فتشعر فجأة بالشجن الغامض يتسلل إلى نفسك ، وتجد نفسك بعد انتهاء اللحظة أقل ابتهاجا بالحياة ، وأكثر ميلاً للحزن والصمت والتأمل؟! .

أنا شخصياً يحدث لى ذلك فى مواقف ولحظات أبعد ما تكون عن الحزن والكآبة ، وقد تجرأت ذات يوم وتحدثت فى هذا الموضوع مع صديق لى ، هاوٍ لعلم النفس ، فنفى أن يكون ذلك من الميول الاكتئابية ، وأكد لى أن المكتئب تنحصر اهتماماته وأحزانه غالباً فى ذاته ، لكن قمة السرور قد تكون فى بعض الأحيان معادلة لقمة الاستعداد للحزن ، ولهذا . . فإنه يمكن بسهولة أن ينتقل الإنسان من هذه إلى تلك فى لحظات إذا استثيرت أحزانه القديمة ، أو تلقت منبهّا خارجياً يجددها ويستدعيها من مكامنها . . كما أن إشارة الاستدعاء هذه قد تجىء فى موقف حزين . . وقد تجىء أيضاً فى موقف لا يوحى للآخرين بالحزن . ولا غرابة فى ذلك ، لأن أثر المؤثرات الخارجية على النفس قد يختلف من إنسان

لآخر، تبعا لحالته النفسية، وطبيعته الشخصية التى قد تستجيب لدواعى الحزن بأسرع مما تستجيب لدواعى الابتهاج ، أو العكس .

فإذا كان الأمر كما يقول صديقى - هاوى التحليل النفسى - فلا بأس إذن بأن أحدثك عن بعض المواقف العابرة التى أثارت أشجانى، وسلمتنى لفترة غير قصيرة بعدها للتأملات، والصمت، والحزن الشفيف الغامض .

❊ ❊ ❊

فى الكعبة المشرفة ذات صباح بارد نسبياً منذ سنوات ، ابتهجت حين دخلت ساحة الحرم ، ولمست قلة الزحام فيه فى ذلك الوقت المبكر من الصباح ، ووجدتها فرصة نادرة لأن أستطيع أن ألمس أستار الكعبة ، وألصق صدرى بها، وأناجى ربى بما تحلو لى به المناجاة ؛ وفعلت ذلك بالفعل ؛ وشعرت بسكينة شديدة وسلام غريب ، وتهيأت لأن أغادر موقفى إلى فندق قريب ، لأشرب قهوة الصباح وأقرأ الصحف ، وأنا فى هذه الحالة المعنوية الطيبة ، فإذا بى أرى إلى جوارى سيدة شابة جميلة فى العشرينيات من عمرها ، تحمل طفلاً وليداً على ذراعها . . وتمسك بيد الطفل الوليد ، وتلمس بها أستار الكعبة، وتقول له بصوت هامس: قل يارب اشف ماما . . قل يارب اشف ماما من أجلى . . قل! .

والطفل الوليد لا ينطق ولا يتكلم بالطبع ، ولا يفهم أبعاد الموقف

الأليم ، لكنى فهمته للأسف . . ووجدت نفسى أهتف بحرارة وأنا متعلق بأستار الكعبة، وظهرى لهذه السيدة : اللهم استجب لدعاء هذا الطفل الصامت لأمه ، ولا تردهما خائبيْن. . اللهم اشفها ، واشف كل مريض. . . آمين يارب العالمين . ثم غادرت الحرم، وقد تبدد جزء كبير من السكينة التى شعرت بها من قبل ،وصاحبتنى صورة هذه السيدة الشابة فى مجلسى بالفندق بعد ذلك ، وتساءلت فى أعماقى عما تشكو منه هذه الأم الصغيرة ، وهل هو المرض اللعين الذى تقشعر الأبدان لذكره ؟ ، و هل هى من المقيمات بهذا البلد مع زوجها وأسرتها ، أم تراها قد جاءت من بلدها معتمرة لتتشفع بالمكان الطاهر فى الاستجابه لدعائها ؟ .

وتسلل الشجن الغامض الشفيف إلى نفسى، فرافقنى لفترة طويلة من ذلك الصباح ، ومازلت أتذكر حتى الآن صورة هذه الأم الصغيرة الجميلة ، وهى تدفع بابنها الطفل فى اتجاه الكعبة ، وتهمس له طالبة منه دعاء الصامتين ! .

***

فى ميناء الإسكندرية منذ أكثر من عشرين سنة، كنت أقف على الرصيف، وسط عشرات من الرجال النساء والأطفال ينتظرون ذويهم العائدين بالباخرة من إيطاليا ، وبيننا وبين الممر الذى يمشى فيه الركاب من باب الباخرة إلى صالة الجمرك حاجز من السلاسل الحديدية، وقد بدأ الركاب يغادرون السفينة ، فلا يكاد يظهر أحدهم

أمامنا، حتى يتهلل أهله المنتظرون، ويلوّحون له بحرارة وابتهاج، ويقولون له : حمدا لله على السلامة ، ويبادلهم الراكب كلمات الفرح والشوق والابتهاج، ويلوح لهم بحماس، قبل أن يتخذ طريقه إلى صالة الجمرك ، ويغيب عن الأنظار .

وكغيرى من المنتظرين . . ابتهجت برؤية من كنت أنتظره ، ولوحت له بيدى بحرارة ، وتبادلت معه كلمات الترحيب والتهنئة بسلامة الوصول، وقبل أن أغادر موقفى إلى الباب الخارجى للميناء لمقابلته ، رأيت راكباً فى الأربعين من عمره، ومعه زوجته وطفلان ، يتجهون إلى صالة الجمرك ، والرجل يقول للمنتظرين بابتسامة حزينة :

ـ ونحن . . ألا من أحد يقول لنا حمدا لله على السلامة ! .

فمصمصت بعض السيدات الواقفات بجوارى شفاههن تأثراً ، وقالت أكثر من واحدة : يا عينى ! . ووجدت نفسى ـ بغير أن أدرى ـ ألوح له بيدى قائلاً : حمدا لله على سلامتكم ! . . فاتسعت الابتسامة الحزينة على شفتيه ، وشكرنى بامتنان ، ثم توجه بأسرته إلى باب الخروج، وأستغرق أنا فى تأملاتى، فأتساءل . . ترى ماذا قطع بينه وبين الأهل ، فغابوا عن انتظاره ؟، ومن أى رحلة غربة طويلة تقطعت خلالها الأسباب بينه وبين الأهل رجع ؟ ، وأتذكر كلمة السيدة التلقائية : يا عينى ! ، فأفسرها فى ذهنى بأنه : يا عينى حقاً على من لا أهل له ، ولا أحباء ، ولا وطن ينتظره فيه من يسعدون برؤيته ويفتقدون غيابه .

وتفسد علىّ كلمات هذا العائد - الذى لا ينتظره أحد - بعض ابتهاجى بعودة من جئت إلى الميناء لاستقباله ! .

***

فى بيت إحدى قريباتى منذ بضع سنوات ، فاتنى حضور زفاف ابنتها، لسفرى وقتها إلى الخارج ، فتوجهت إلى بيتها بعد العودة مهنئاً ومعتذراً ، وأرادت أن تعوضنى عن بعض مافاتنى؛ فعرضت علىّ فيلم الفرح فى الفيديو ، واجتمعت الأسرة حول التليفزيون تتابعه معى ، وهم مبتهجون ، يستعيدون ذكريات الحفل السعيد . وبدلا من أن أشاركهم ابتهاجهم ، إذا بى أركز أنظارى على شاب من أفراد فرقة الزفة بدا لى نحيفاً وسقيماً ، وهو يدق بيده على المزهر الكبير ، ووجهه تكسوه علامات الألم والإجهاد والضيق ؛ فأنفصل تماما عمّن حولى ، وأتخيل أن هذا الشاب مريض بالكلى والسكر ، لكنه يغالب آلامه وأمراضه من أجل لقمة العيش ، وأنه يغنى للسعداء فى ليلة زفافهم وهو الحزين المطعون فى قلبه ومشاعره ، الذى فشل فى أن يتزوج فتاته بسبب مرضه، وفقره ،وقلة حيلته . . فيعد نفسه - بعد أن فقد الأمل فى الزواج ممن يحب - بأن يزوج شقيقه الوحيد الصغير ذات يوم ، ويقسم على أن يرقص بين يديه فى ليلة زفافه ابتهاجا ، ولو فاجأته غيبوبة السكر! .

ثم استغرقت فى تفاصيل هذه القصة الحزينة التى نسجتها فى خيالى ،

وكتبتها فيما بعد بعنوان « ليلة سعيدة » ، وانتهى عرض الفيلم ، فترك أثره البهيج على الجميع ، ما عداى ! .

❊ ❊ ❊

فى مكتب لنقل الأثاث بالسيارات منذ حوالى ثلاثين عاماً . . جلست مع شقيقى منتظراً انتهاء صاحب المكتب من الحديث مع رجل مُسن بسيط المظهر ، وشاب صغير لا أدرى لماذا شعرت بانكساره وحزنه ، بالرغم من أن المقام لا يثير الأحزان . وكان الرجل يتفق مع صاحب المكتب على استئجار سيارة لنقل أثاث هذا الشاب الصامت إلى بيت الزوجية الجديد . والتفت صاحب المكتب إلى الشاب مهنئا، وسأله عن حجم الأثاث المطلوب نقله ، فراح الشاب يصفه له فى حرج، فإذا به لا يعدو بضع قطع بسيطة من الأثاث الرخيص ، فقال له صاحب المكتب أنه لا يحتاج إلى سيارة كبيرة ، وإنما إلى سيارة نصف نقل صغيرة ، ثم حدد الأجر المطلوب ، فرجاه الرجل المسن تخفيضه ، لأن هذا الشاب هو ابن شقيقه . . ويتيم . . ولا سند له ولا مال ، وقد دبر تكاليف زواجه بمعجزة من معجزات السماء ، ولربما اقترض أيضاً أجرة هذه السيارة ! ، والشاب يستمع لما يقول عمه حانى الرأس ، وبؤس الدنيا كله فى وجهه ، فيستجيب صاحب المكتب لرجاء الرجل، ويخفض الأجر بعض الشىء . . ويشكره العم، داعيا له بالخير ، وينصرف مع ابن شقيقه ، وقد حلّ على المكان كله جو من الشجن الغامض.

ونهى مهمتنا مع صاحب المكتب ، ونخرج، وليس فى مخيلتى سوى صورة هذا الشاب المنكسر، وعمه يترافع عنه وعن ظروفه فيخطىء التعبير أحياناً ، ويجرح كرامته بغير قصد ! .

* * *

أمام بيت إحدى فتيات الأسرة بالمدينة الصغيرة . . والليلة ليلة زفافها ، وقد وقفت العروس الشابة إلى جوار عريسها أمام البيت ، واصطفت أمامهما فرقه الزفة تغنى أغانيها البهيجة ، ومن حولهما الأهل والأصدقاء .

ووقفت بين الواقفين أحضر الزفة التى ستطول لنصف ساعة على الأقل، قبل أن ينتقل العروسان إلى نادى المدينة ، ويشهدا الحفل الساهر ، ثم يسافرا بعده إلى بيت الزوجية فى مدينة أخرى .

وتأملت العروس الشابة وهى واقفة عند مدخل باب بيتها الذى تربَّت فيه بين إخوتها وأهلها ، وآن لها الآن أن تغادره إلى بيت آخر ومدينة جديدة ، فإذا رجعت إليه بعد ذلك، فكما يجىء الضيف إلى بيوت الآخرين لفترة قصيرة و إقامة مؤقتة ، وقد تبدد من نفسها إلى الأبد إحساس المقيم ، أو صاحب البيت ، فإذا بى أشعر بأسى غير مفهوم وسط دقات الطبول وأغانى المنشدين .

وأتلفّت إلى صديقى الواقف إلى جوارى ، الذى لا تربطه صلة قرابة من أى نوع بالفتاة أو بعريسها ، فأجد الدموع فى عينيه . . وأنظر اليه

متسائلاً ، فيقول لى معتذراً : عفواً .. فأنا لا أستطيع أن أحبس دموعى كلما شاهدت فتاة صغيرة تغادر بيت أهلها وأمها وإخوتها ، لتذهب إلى بلد آخر غريب عنها ، وحياة جديدة مجهولة لها ، لا تعرف إن كانت ستسعد بها أم ستشقى ؟ ... فهززت رأسى متفهما ، وأنا أشعر لأول مرة بأنى قد وجدت من يشاركنى هذا الإحساس الغامض ، ويعبِّر عنه بما لا أستطيع من كلمات ! .

* * *

لا مكان محدد . . ولا تاريخ أيضاً لهذا الموقف ، وإنما هى أية لحظة يستمع فيها الإنسان إلى أغنية لاتبدو للآخرين حزينة ، ومع ذلك فإنها تترك فى نفسه أثراً من الشجن لا يعرف له تفسيراً ، والقائمة طويلة ، لكنى أتوقف منها أمام أغنية ليلى نظمى القصيرة :

« عِشريين والله ياحبايبنا عشريين »

وأغنية سيد مكاوى :

« حلوين من يومنا والله ، وقلوبنا كويسة » ،

وأغنية نادية مصطفى : « سلامات سلامات يا حبيبنا يابلديات » ، إلى آخر هذه الأغانى الموحية بالشجن ، بالرغم من أن كلماتها قد تدعو للابتهاج بالحياة .

* * *

فهل ترى تفسير صديقى هاوى التحليل النفسى صحيحا ، وأنه لاداعى للقلق حقاً بشأن هذه الميول الاكتئابية . . أم ترى أن الأمر ليس بهذه البساطة ، ويتطلب استشارة متخصص فى علم النفس ، وليس مجرد هاوٍ له كصديقى هذا ؟ . .

أحلام سعيدة !

كلما هلّ على الدنيا عام جديد ، توقف البعض ليراجعوا حسابهم مع العام الماضى ، ويحددوا أحلامهم للعام الجديد . وحين اقترب عام ١٩٩٧ من المجىء ، سألنى مذيع شاب عن أحلامى لنفسى فى العام الجديد ، فأجبته بعد تفكير قصير بأنه فى مثل سنى ، فإن الأحلام تتواضع كثيراً عما كانت عليه فى بداية الشباب ، حتى تكاد تنحصر غالباً فى الصحة والستر ، وفى أن يحيا الإنسان حياته ـ أو مابقى له منها ـ فى سلام مع نفسه ، ومع من حوله ، فإن شئتُ بعد ذلك الإسراف أو الاستغراق فى دنيا التمنيات ، فلعله يكون من أحلامى أن أعتزل ذات يوم قريب العمل الصحفى الذى بدأته وعمرى ١٧ عاماً ، وأن أتفرغ لحياة الكتابة الأدبية بلا مسئوليات ولا التزامات محددة ، أو أعباء إدارة فريق من البشر ، تكون مسئولاً عنهم ، وعن إرضاء طموحهم ، وتحقيق العدل بينهم ، وحثهم دائماً على العمل والكفاح والإنتاج .

ولا غرابة فى أن يكون هذا هو حلمى الآن فى هذه المرحلة من عمرى . . ذلك أن إدارة البشر من أصعب المهام الإنسانية على وجه الإطلاق ،

ونيل رضاهم جميعاً فى نفس الوقت من الأحلام شبه المستحيلة ، لأن بعض البشر لا يرضيهم إلا أن تعطيهم ما لا حق لهم فيه ، وإلا أن تتغاضى عن تقصيرهم وأخطائهم ، وتسوّى بينهم وبين من يكدحون ويعملون، وينتظرون أن تميزهم عن غيرهم من الكسالى ، فإن أرضيت هؤلاء؛ خسرت الآخرين ، وإن أرضيت الجميع؛ خالفتَ العدل والحق والضمير .

أما حين تصبح مسئولاً عن « إدارة » نفسك وحدها ، فالأمر متروك لك كله ، إن شئتَ أحسنتَ الإدارة وحققت العدل مع نفسك، وجنيت ثمار ذلك ، وإن شئت أسرفت على نفسك، وأسأت إدارة قدراتك، ودفعت ثمن ذلك أيضاً راضياً .

وأيـًّا كان العناء . . فلابد للإنسان دائماً من الحلم بغد أفضل ، وأكثر تحقيقاً للآمال . . . فَـأَنْ يصبح للإنسان حلم يدغدغ مشاعره من حين لآخر ، ويخفف عنه جفاف الواقع ، أفضل كثيراً من أن يستسلم للإحباط والضيق واليأس من احتمال التغيير فى يوم من الأيام . فقط ينبغى لنا أن تكون هذه الأحلام صغيرة ومتواضعة، وفى متناول يد الإنسان إذا تسلح بالإرادة ، وسعى إلى تحقيقها بدأب . وفيما عدا ذلك . . فلا ضير فى أن يؤمن الإنسان دائماً مع بطلة رواية (ذهب مع الريح) لمؤلفتها الأمريكية مرجريت ميتشيل بأنه : « فى الغد دائماً متسع لكل شىء » .

وانصرف محاورى قانعاً بما قلت له . . وسَرَحْتُ أنا مع خواطرى

وتأملاتى ، فتذكرت ذلك الشاب الصغير « عصفور » بطل رواية «هموم شخصية » للروائى اليابانى كنزا بورو، الذى فقد فرصته فى أن يصبح أستاذاً جامعياً بسبب إدمانه الخمر ، ونجح صهره فى أن يوفر له عملاً بأحد المعاهد العلمية كمحاضر بالأجر من خارج هيئة التدريس، فعاش حياته محبطاً ، يداعبه حلم واحد ، هو أن يهرب من كل شىء، ويسافر إلى أفريقيا ليعمل هناك، ويمارس متعة اكتشاف الجديد، وإثبات الذات فى دنيا مختلفة ، فراح يدخر بصبر تكاليف رحلته الأفريقية . . ويقضى الساعات يتأمل خريطة أفريقيا ، التى حدد عليها النقطة التى سيهاجر إليها .

ودخلت زوجته الشابة المستشفى لتضع مولودها ، فإذا بها تضع طفلاً مشوهاً كالمسخ ، يبرز من رأسه نتوء مخيف ، وينذره الأطباء بأن طفله سيعيش - إذا نجا من الموت - كالدمية ، أو كالنبات الذى يحس ، لكنه لا يتكلم ، ولا يفكر ، ولا يسعى فى الأرض ، ويخيّرونه بين تحمل مسئوليته عنه، ورعايته، وقبوله كما هو ، وبين توقيع إقرار برفض هذا المسخ من بدايته ، فيبدأون فى إضعافه تدريجياً ، عن طريق المحاليل التى تربطه بالحياة، حتى الموت .

ويتردد الشاب الصغير المحبط أمام القرار الصعب لبعض الوقت ، ويطرح الأمر على نفسه بأن عليه أن يقرر ما إذا كان يقبل هذا الطفل المشوه ، فيرعاه وينفق عليه كل ما ادخره لرحلته الأفريقية التى يحلم بها، أو أن يتخلى عنه ، ويصدر عليه حكم الموت .

وبعد تردد غير قليل ، يؤثر تحقيق حلمه القديم ، ويوقع الإقرار المطلوب ، ويقضى أيامه برفقه زميلة قديمة له بالجامعة ، انتحر زوجها الشاب ، وتركها وراءه تعيش بلا هدف ، وينفق عليها صهرها ، ويعيش عصفور لفترة بين أحضانها وهو حائر فى أمره ، لايعرف هل اختار الطريق الصحيح لحياته ، أم لا . وبعد تطورات عديدة ، يرجع إلى نفسه ، ويسلّم بأن « الشىء الوحيد الذى يستطيع الأبوان أن يفعلاه لطفلهما حين يجىء إلى الدنيا ، هو أن يرحبا به ، ويرعياه مهما كانت ظروفه الصحية » وأن هذا هو الطريق الوحيد ، لكيلا يظل هارباً على الدوام من مسئولياته ؛ فيرجع إلى المستشفى ، ويدفع مدخراته للرحله الأفريقية تأمينا لتكاليف الجراحة المطلوبة لإزالة النتوء الكبير فى رأس الطفل ، ويلغى قراره السابق برفضه .

ويجرى الأطباء الجراحة المقررة له ، فيتبين خلالها أن هذا البروز المخيف بمخ الطفل لم يكن إلا ورماً حميداً تمت إزالته ، فلا يلبث الطفل بعد قليل أن يقترب من الهيئة الآدمية ولا تلبث ملامحه أن تتضح ، وتقترب من ملامح أبيه . ويرمقه الأب من خلف الزجاج ، وهو يقول لنفسه : يبدو أن الواقع يرغم الإنسان أحياناً على أن يحيا بشكل صحيح حين يعيش هذا الواقع ، ويكف عن محاولة الهرب منه ! .

ثم يمضى لزيارة زوجته الشابة ، راضياً عما فعل وعما اختار . . ومؤجلاً حلمه القديم بالسفر إلى أفريقيا إلى فرصة أخرى ، ويشعر فى نفس الوقت بالامتنان لهذا الحلم الجميل الذى راوده خلال الأعوام

الثلاثة السابقة ، فلولاه لما احتمل حياته بعد ما أصابه من إحباط ويأس ، حين فقد فرصته فى العمل كأستاذ جامعى ، ولولاه أيضاً لما وجد من مدخراته ما يدفعه للمستشفى لإجراء الجراحة لطفله ورعايته ، كأنما يقول مع ذلك الأديب الأمريكى مؤلف قصة « جسور ماديسون » : **أعلم أن أحلامى لم تتحقق . . لكنى سعيد رغم ذلك بأنها قد راودتنى خلال السنوات الماضية !**

فالحلم واحة جميلة وسط الصحراء القاحلة ، يستريح فيها الإنسان بعض الوقت من هجير الحياة ، لكن القافلة لا تتوقف فى الواحة إلى النهاية . . وإنما تلتقط أنفاسها فيها بعض الوقت ، وتتزود بالماء والأمل والقوة . . لتواصل السفر من جديد ! .

● ● ●

وكالحلم الجميل أيضاً . . كانت الأيام التى يعيشها فى نفس الرواية الأستاذ «ديشيليف» الملحق بسفارة إحدى الدول الشيوعية السابقة بطوكيو ، مع فتاته اليابانية الصغيرة التى لا تعرف أيه لغة أخرى عدا اليابانية ،فى حين لا يعرف هو من اليابانية سوى بضع كلمات ، ومع ذلك . . فلقد جمع الحب بينهما ، واختفى من سفارته ، وأقام معها فى شقة صغيرة بحى شعبى مزدحم ، وحين سعى إليه عصفور ليحذره من أن رجال السفارة يبحثون عنه لإعادته إلى بلده ، وطالبه بالعودة معه قبل أن يقبضوا عليه ؛ رفض العودة ، وفضل أن يُطيل أيام الحلم القصير لأقصى ما تسمح به الأقدار ، فإذا جاء رجال السفارة بعد ذلك وقبضوا

عليه لإعادته إلى بلده « فلسوف تفهم الفتاة بغير كلام أننى لم أهجرها بإرادتى ، وإنما تركتها رغماً عنى . . وهذا يكفينى ويكفيها لأن يحتفظ كل منا للآخر بأجمل الذكريات » .

ويسلّم له عصفور بمنطقه . . منطق ارتشاف لحظات السعادة حتى الثمالة فى الحلم القصير ، قبل أن يرغمه الواقع على التخلى عنه ، لكنه يتعجب للحب الذى يجمع بينهما ، وكلاهما لا يعرف لغة الآخر ، ويسأله كيف يتفاهمان ؟. ويجيبه الأستاذ ببساطة: إننا نتفاهم بالصمت! ، **لأنه فى الحب الصادق لا يحتاج الإنسان لأن يتكلم** ، وإنما لأن يحس وأن يتصرف بما يمليه عليه هذا الحب من سلوك وأفعال ، ويكفى فتاته أن تعرف أنه قد عرَّض مستقبله كله للخطر من أجلها ، لتقتنع بحبه لها ، إذ هل هناك «كلام آخر » أبلغ تعبيراً عن الحب من هذا العمل الصامت ؟ ! .

● ● ●

وفى رواية إنجليزية جميلة ، كانت السيدة العجوز تعمل فى بيت أسرة ثرية ، تذهب إليه فى الصباح ، وترجع منه إلى بيتها الذى تعيش فيه وحيدة فى المساء . وفى أحد الأيام شاهدت فستان سهرة جميلاً فى دولاب مخدومتها ، وسألتها عنه . . من أين اشترته ، وكم دفعت ثمنا له ، وأجابتها السيدة بأنه من صُنع مصمم الأزياء الشهير كريستيان ديور بباريس ، وأنه من الموديلات التى لا يصنع منها إلا قطعة واحدة بناء على طلب المشترى ، وأن شراء فستان كهذا يتطلب حضور عرض

الأزياء الخاص الذى تنظمه محلات كريستيان ديور بباريس من حين لآخر ، واختيار الموديل، ودفع ثمنه ، ثم استلام الفستان بعد قليل،وتنسى ربه البيت هذا الحديث العابر ، لكن السيدة العجوز لا تنساه أبدا ، فلقد تعلق أملها أو حلمها بأن تقتنى فستانا كهذا الفستان من صنع كريستيان ديور ، مهما كلفها ذلك من مال وجهد .

وتبدأ فى ادخار كل قرش تستطيع ادخاره ، وتحرم نفسها من كل شىء لكى تحقق هذا الحلم السعيد فى يوم من الأيام . وبعد ثلاثة أعوام طويلة من الادخار والحرمان ، كان قد توفر لها ما يكفى لشراء تذكرة السفر إلى باريس ، والإقامة فى فندق صغير ، وشراء الفستان . وسافرت بالفعل إلى هناك ، وتدخلت الأقدار لمساعدتها على تلبيه رغبتها ، فتعاطفت معها إحدى سيدات دار كريستيان ديور ، وساعدتها على حضور عرض الأزياء الخاص وسط سيدات المجتمع المرموقات وأثرياء القوم ، وحظيت بصداقة كونت فرنسى شاب ، أعجب بها وبلطفها ، فدعاها إلى بيته، وطاف بها أنحاء باريس بسيارته الفاخرة ، ليعرفها بمعالمها .

ووجدت السيدة العجوز نفسها فجأة موضع اهتمام أكثر من سيدة جميلة شابة ، تطمح إلى صداقة هذا الكونت الوسيم ، وعاشت أسبوعاً حافلاً بالزيارات المثيرة ، واللقاءات المهمة مع الكونت الشاب والسيدات اللامعات ، ورجعت إلى لندن بعد أسبوع ، وهى تحمل الفستان النفيس الذى تكبدت الكثير من أجله ، وسألتها جارتها

المسنّة : أكان هذا الفستان يستحق كل ما تحملت من أجل شرائه ؟
فتجيبها راضية : نعم ، يستحق كل ذلك وأكثر ، فلقد حققت به حلماً جميلاً راودنى ، وعشت أياما سعيدة حافلة ، وكسبت صداقة أشخاص ممتازين ، ستتصل الصداقة بيننا للأبد عن طريق الرسائل ، وسيكتبون إلىّ فى الأعياد ، وأكتب إليهم .

ثم نامت ليلتها الأولى بعد العودة سعيدة راضية وصحت فى الصباح على واقع حياتها البسيطة فخرجت لتركب الأتوبيس، وتتوجه إلى بيت الأسرة التى تقوم بخدمتها ، وهى فى قمة النشاط والحيوية والحماس . . لأن الحلم لم يصرفها عن واقعها البسيط ، وإنما أعانها وأعطاها دفعة قوية لمواصلة المشوار .

● ● ●

وفى الستينيات كنت أزور الإسكندرية كثيراً ، خاصة فى فصل الشتاء، وأجلس فى مقاهى وسط المدينة ، مستمتعاً بصحبة أصدقاء الطفولة الذين فرقت الحياة بيننا ، واختاروا الإقامة بالثغر ، وكان يطوف بنا فى هذه المقاهى رجل عجوز ، يرتدى بدلة سهرة سوداء قديمة ورثّة ، ويحمل فى يده عوداً ، فيقف إلى مائدتنا لدقائق ويعزف على عوده، ويغنى بصوت لا بأس به لبعض الوقت ، وأنفاس الخمر تنبعث منه ، ثم ينصرف عنا ، شاكراً لنا ما نهبه له من هبة صغيرة .

وذات ليلة تجاذبت معه أطراف الحديث ، وسألته عن اسمه ، وحياته . . وأين تعلم الغناء والعود . . إلخ ، فأجابنى عن كل ما

سألت ، ثم سألته عن أحلامه وهو فى هذه السن ، فإذا به يجيبنى بأن حلمه الوحيد هو أن يسافر إلى القاهرة ، وأن يُسمعها صوته وألحانه وفنه. ثم سرح ببصره بعيداً ، وهو يتأوه ، كأنما يستغرق فى حلم بعيد المنال ، ويقول : ياسلام ياعلى يا إمام ، لو ذهبت إلى القاهرة وسمعك الناس فيها !

وغادرنا الرجل بعد قليل ، وأنا أتأمل حلمه « الكبير » ، وأتعجب له ، والقاهرة لا تبعد عن مدينته أكثر من مسيرة ساعتين بالقطار ، ومع ذلك فلقد تحدث عنه وكأنه حلم مستحيل ! . ومن عجب أننى رأيته بعد ذلك على مدى بضع سنوات ، وسألته نفس السؤال ، فكان يجيبنى فى كل مرة بنفس هذه التأوهات الحسيرة ، متخيلاً ماذا يمكن أن يكون من أمره لو سافر إلى القاهرة ، وسمعه كبار الملحنين بها .

وظل هذا الحلم العاجز يراوده حتى نهاية العمر فيما يبدو ، دون أية محاولة لتحقيقه ، مستروحا فى الحديث عنه راحة مؤقتة تخفف عنه بعض ما يشعر به من إحباط وهزيمة وخيبه أمل .

● ● ●

ولا بأس بذلك إذا لم يعق الحلم تواصل الإنسان مع حياته وواقعه . . . فلكل إنسان دائماً أحلامه الصغيرة والكبيرة ، التى قد يسعى لتحقيق بعضها ، وقد يكتفى من الأخرى بتخيّل عالمها الجميل ، واستشعار نسمات الراحة ، وهو يستعيدها فى مخيلته .

ولقد كان حلم بطل رواية « سوء تفاهم » لألبير كامى، بعد أن حقق نجاحه وثراءه ، هو أن يرجع إلى بلدته الصغيرة التى هجرها فى شبابه ، وأن يرى أمه وأخته اللتين تخلى عنهما لأقدارهما فى ذلك الحين . ورجع بالفعل إلى بلدته ، وأقام فى الفندق الصغير المهجور الذى تملكه أسرته ، فكانت مأساته أن قتلته أمه وأخته ، وهما لا تعرفان شخصيته لكى تسرقاه، بعد أن ساءت الأحوال، ولم يعد الفندق الصغير الذى تملكانه يوفر لهما تكاليف الحياة ! .

وكان حلم بطل رواية « حضرة المحترم » لنجيب محفوظ ـ الذى عمل له طوال حياته ـ هو أن يصبح ذات يوم مديراً عاماً للمصلحة التى بدأ حياته موظفاً صغيراً بأرشيفها ، يجلس فى حجرة المكتب الواسعة كالملعب .. ويخاطبه الموظفون فى مكاتباتهم بلقب «حضرة صاحب السعادة المدير العام »، وينشر العدل فى إدارته كما ينبغى لمن كان مثله ... فواصل العمل بإخلاص شديد سنوات طويلة ، حتى أصبح حُجّة فى اللوائح والقوانين ، وحقق خطوات موفقة على طريق التَرَقِّى فى السلم الوظيفى، ثم خلا فى النهاية منصب المدير العام ، وأصبح هو المرشح الوحيد له .. فإذا به يسقط مريضاً بالشلل والقلب ، والضغط والسكر ، ويمضى أياماً حرجة معلقاً بين الحياة والموت ، والوزير المختص يتأهب لتوقيع القرار الذى انتظره طوال عمره .

ويتركنا نجيب محفوظ فى نهاية الرواية ، ونحن لا نعرف هل عاش الرجل ليستمتع بتحقيق الحلم الذى راوده طوال ٣٥ عاماً ، أم كانت يد

القدر أسبق إليه من أن يعيش « الحلم » الذى تخيله معظم سنوات العمر؟ . . فما أكثر ما تمنيت وأنا أقرأ هذه الرواية أن يطول العمر ببطلها ، لكى يجنى ثمرة كفاحه ، ويستمتع بتحقيق الأحلام ، ولو لبضعة أشهر .

وما أكثر ما تمنيت ألا تضاعف الحياة من آلامها للبشر، حين تؤجل تحقيق الأحلام إلى اللحظة التى ينزل فيها ستار الختام . . . فلا يكاد الإنسان يسعد بتحقيق حلمه أخيراً ، حتى يتحسر على العمر الذى ضاع فى الكفاح ، ولمَّا يتح له أن يسعد بالراحة بعد العناء. . إذ ليس أقسى على الإنسان من الأحلام الموؤدة ، إلا الأحلام التى تتحقق بعد فوات الأوان . . . فالأولى يخفف على الإنسان إحباطه معها . . استمرار الأمل فى الغد الذى يتسع لكل شىء ، أما الثانية ، فإنه يضاعف من شقاء الإنسان بها . . حسرته على أنها قد جاءت أخيراً ، وهو يتسَمَّع لحن الختام . . فكأنما كانت الرحلة كلها بلا راحة . . ولا سلوى. . ولا عزاء ! .

ورغم ذلك كله . . فلابد دائماً للإنسان من أن يحلم دائماً بغد أسعد وأجمل وأفضل ، ولابد له أن يتعلق دائماً بالأمل فى رحمة الله ، وفى أن ترقَّ له الحياة ذات يوم ، وتسمح له بتحقيق الأحلام فى الوقت المناسب ، وليس بعد فوات الأوان ! .



أنا .. والقانون و « الدرس » !

** من أحب كتب توفيق الحكيم إلىَّ . . كتاب صغير قرأته فى طبعته الأولى باسم «عدالة وفن » . . وقرأته فى طبعاته التالية باسم « أنا والقانون والفن » . وهو كتاب مذكرات أو ذكريات شخصية عن الفترة التى عمل فيها الحكيم فى شبابه وكيلا للنيابة فى إحدى مدن الأقاليم الصغيرة، وحُرِم من الاستمرار فى الكتابة للمسرح ومعايشة أهل الفن ، فراح يحاول مقاومة السأم فى المدينة الصغيرة المحرومة من مظاهر الحياة الفكرية والفنية بالقراءة والاستماع إلى الموسيقى ، ويُغالب ملل جلسات المحكمة الطويلة بتأمل المتقاضين والمحامين والقضاة ، بنظرة فنان يهتم بتأمل ملامح شخصياتهم ، ويحاول استكشاف الجوانب الفنية والإنسانية فيها ، وتختلف رؤيته للأمور كفنان أو مفكر عن رؤيته لها كرجل قضاء ، يمثل الاتهام فى القضايا المعروضة .

ففى إحدى الجلسات مثلا يفيق من سرحانه الطويل أثناء انعقاد المحكمة، فيجد أمامه سيدة مُقدمة للمحاكمة بتهمة التعدى على خفير أثناء أداء عمله . . وتستلفت شهادة الخفير ضدها انتباهه حين يروى

أنه رآها تقف أمام باب بيتها بكامل زينتها تتبادل الكلام والضحك بخلاعة مع بعض الرجال ، فغلى الدم فى عروقه؛ ونهرها وأمرها بأن تدخل بيتها وتحتشم !، فعز على المرأة أن يخاطبها الخفير البائس بهذه اللهجة الجافة، وهى من يطلب الرجال رضاها، فسبته سبابًا فاحشا، وختمته بقولها له :

ـ اخرس يا غفير يا مصدّى . . دانا لما أنفض شبشبى الصبح ينزل منه عشرين غفير زيك ! .

فظهر الاستنكار على وجه القاضى حين سمع ذلك، وظهر الاعجاب على وجه وكيل النائب العام !، فقد نظر إلى ما قالته بعين الفنان والأديب، فرأى أنها قد صاغت صورة بلاغية من أجمل صور الخيال الفنى فى الهجاء !، ورأى القاضى أنها تستحق العقاب ، ورأى وكيل النيابة الفنان أنها تستحق جائزة أدبية فى فن الهجاء ! .

وبسبب ضيقه بملل جلسات محكمة الجنح الطويلة، حيث تتوالى القضايا التافهة التى لا تشد الانتباه بجديد أو مثير فيها . . فقد كان الحكيم يستسلم خلالها للسرحان، ويغيب عما يجرى أمامه ، إلى أن ينبهه القاضى ـ الذى يعرف عاداته جيدا ـ إلى ضرورة تدخله . وبسبب آفة السرحان هذه. . . تعرض لموقف طريف عصيب ، فقد فوجىء فى إحدى الجلسات بحاجب المحكمة يضع مقعدا إلى جواره، ويبلغه أن سعادة البك المفتش القضائى قد حضر ! .

ودخل المفتش، فحيا وكيل النيابة بصوت خفيض وجلس ليراقب سير المحكمة ، وكانت الجلسة منعقدة منذ عدة ساعات . . وقضايا الجنح كثيرة ومتشابهة ومملة، ووكيل النيابة الفنان قد ضاق بها منذ فترة طويلة ، فاستسلم لسرحانه المعهود ، وأبحر بخياله بعيدا عن القاعة ، يتذكر بداياته كمؤلف مسرحى وهو طالب بكلية الحقوق . . وصحبته لأهل الفن وذكرياته معهم . . فأفاق على صوت المفتش يسأله عن رأيه فى القضية المعروضة ؛ فاصفر وجهه ، وغرق فى بحر الحيرة . . أية قضية؟ . إن « رول » الجلسة مزدحم بالقضايا . . وهو غائب الذهن منذ فترة طويلة ، ولا يعرف أية قضية يتم نظرها الآن ،ولسوء حظه . . . كان المحامى يرغى ويزبد ويطعن فى تصرف النيابة، لكنه لا يشير بكلمة واحدة إلى موضوع القضية لكى يتذكرها ، أو يحاول تذكرها .

وتمادى المحامى فى هجومه ، مستنكراً من النيابة أن تقدم المتهم مكبلاً بكل هذه النصوص من مواد العقوبات ، فمال عليه المفتش يسأل عن المواد المطبقة على المتهم . . ولكن أيةمواد ، وأى متهم، وهو لا يعرف القضية أصلا ؟ .

فردد وكيل النيابة عينيه بين المحامى والمفتش ذاهلا ، وتمنى من أعماقه أن يكف هذا المحامى الثرثار عن هجومه على النيابة ، ليعفيه من الحرج . . لكنه تمادى ، وراح يتهم النيابة بالتخبط والفوضى والخطأ فى تكييف القضية قانونيا . واهتز المفتش فى مقعده غضباً ، وقال لوكيل النيابة الشاب بحدة :

ـ النيابة أهينت . . قم ودافع عن كرامة النيابة . . فقال له الحكيم مداريا موقفه : كرامة النيابة فى الحفظ والصون ! .

ورجع يحاول معرفة نوع القضية ليرد على المحامى الرد المناسب ، ولكن بلا جدوى . وكلما تمادى المحامى فى هجومه ، ازداد هياج المفتش، وراح يشد وكيل النيابة من كمه ، ويطالبه بالنهوض ، وعرض وجهة نظره فى المواد المطبقة على المتهم ، والدفاع عنها . . ووكيل النيابة الشاب متشبث بمقعده ، ويرفض الحركة ، والقاضى يرقب الموقف كله من البداية باسما ،ومشفقا على زميله ممثل النيابة الفنان . . ويحاول أن يشجعه بهز الرأس والابتسام على أن ينهض ويقول أية عبارات عامة تنهى المأزق ، حتى تشجع أخيرا وقام ؛ فلم تسعفه بديهته إلا بهذه العبارة :

ـ النيابة تحتج على الألفاظ التى صدرت من حضرة المحامى ! .

ولم يكن القاضى ينتظر أكثر منها ، ليقول منهيا الموقف أنه يرجو النيابة أن تفسح صدرها للدفاع ، وألا ترى فيها قيل أى مساس بكرامتها. وسارع المحامى أيضا بتأييد كلام القاضى بكلمة مجاملة ، وجلس وكيل النائب العام يتنفس الصعداء ! .

أما أطرف مواقف وكيل النيابة الفنان هذا فى تقديرى ، فقد كان حين عرض على المحكمة « حاو » من الحواة الذين يعرضون ألعابهم على الناس فى الشوارع بتهمة التشرد والتسول ، فنفى الحاوى عن نفسه التهمة ، وأكد أنه « فنان » وليس متشردا ، وأن صناعته هى الفن ،

وخفة اليد ، والحيل السحرية ، ثم عرض على القاضى أن يقدم دليلا عمليا على مهاراته كفنان ، ومد يده بغتة إلى ذقن القاضى ؛ فأخرج منها «كتكوتا» أصفر اللون ،درج على منصة القضاء وسط استحسان الحاضرين وابتهاجهم! ، فسارع القاضى بضبط النظام فى الجلسة ، ثم قال له :

ـ عرفنا أنك بارع فى عملك . . ولكن هل البراعة وحدها تعتبر فنّاً؟ .

فأجابه الحاوى بالإيجاب ، لكن القاضى لم يقتنع وكان صاحب ضمير يقظ ، فأراد قبل أن يحكم عليه بالإدانة أن يستفيد بثقافة وكيل النيابة ، الذى يعرف عنه صلته السابقة بعالم الفن المسرح والأدب ، فسأله :

ـ هل يعتبر البارع فى عمله فنانا ؟ . . فإذا بالسؤال العارض يعيد وكيل النيابة الشاب إلى العالم الذى حُرم منه بسبب عمله القضائى فى الأقاليم ، فنسى نفسه ، وتصور أنه فى منتدى ثقافى ، وانطلق يتحدث حديثا طويلا عن أن البراعة شرط من شروط الفن ،لكنها لا تكفى وحدها لأنْ تؤهل الإنسان لأنْ يكون فنانا ، لأنّ الفن فى رأيه هو الشىء الزائد على البراعة ، ولأن أى عمل فنى لابد أن يكون له إشعاع ينفذ إلى الأعماق ، وعبر الزمن ، ويصمد له . . فقد يكون للعمل الفنى « بريق» يخطف البصر، لكنه لا ينفذ إلى الأعماق ، ولا يصمد للزمن وبالتالى فإن هناك فارقا كبيرا بين «الإشعاع» . . و «البريق » .

وراح وكيل النيابة يضرب الأمثلة على ذلك ،ويقارن بينها ، ويتحدث عن الفرق بين « التدفق الإنسانى » و « التحمس الفنى » ، غير ملتفت إلى أن حديثه يبدو للحاضرين وكأنه رطانة غير مفهومة للقاضى ، أو المحامين ، أو المتهم البائس الذى راح ينظر حوله فاغر الفم مذهولا مما يسمع ، ويحاول عبثا أن يشتم منه أية كلمة توضح له موقف النيابة منه ، أما القاضى ، فقد زاده كلام وكيل النيابة حيرة على حيرة ؛ فأطرق برأسه وراح فى تفكير عميق للحظات ، ثم رفع رأسه أخيرا ، وقال للمتهم ـ متخلصا من ضيقه وحيرته ـ :

ـ روح يا راجل . . براءة ! .

ولأنى من المبتلين بالخلط أحيانا بين عالم الخيال الأدبى ودنيا الواقع ، فلقد تخيلت حين دخلت قاعة المحكمة لأول مرة ـ وأنا فى الواحدة والعشرين من عمرى ـ أننى سأرى فى الجلسة قاضيا ، كالقاضى الذى وصفه توفيق الحكيم فى كتابه الممتع هذا ، ووكيلا للنيابة غائب الذهن عن الجلسة ، كالحكيم فى شبابه ، وأنى سأشهد فى قاعة المحكمة شيئا شبيها بمسرح الحياة ، كما وصف الحكيم قاعة الجلسة فى كتابه . . فوجدت بعض هذه الملامح ، وافتقدت بعضها الآخر . . ومع ذلك . . فلم يخل الأمر من مواقف إنسانية ، وأخرى طريفة تستحق أن تضاف إلى كتاب الحكيم الممتع ! . فلقد كنت متهما بالقذف فى تحقيق صحفى نشرته فى « الأهرام » فى بداية عملى الصحفى فى حق اثنين من صيارفة الأموال العامة الذين يحصلون من المزارعين ضريبة الأرض لصالح

الحكومة ، وفى فئة الصيارفة فى مصر ككل . وكنت قد كتبت تحقيقا عن سلبيات بعض هؤلاء الصيارفة . . فاندفعت بحماس الشباب وعدم تقديره للأمور، وذكرت أسماء بعض من نُسبت إليهم تجاوزات واختلاسات ؛ وقدموا للنيابة بشأنها . وبالرغم من أن هذه الوقائع كانت صحيحة وموثقة بقرارات من النيابة ، إلا أنى تعلمت من قضيتى هذه درسا مهماً من دروس حياتى فى بواكير عملى الصحفى ، وهو أن الاعتبارات الانسانية أهم كثيرا من الاعتبارات الصحفية ، بل والقانونية أيضا فى كثير من الأحيان . . فلقد ذكرت أسماء هؤلاء الصيارفة المتهمين فى تحقيقى ، وقد أخطأوا بالفعل ، ونالوا عقابهم ، فما ضرنى لو كنت قد حذفت هذه الأسماء ، مكتفيا بالوقائع ودلالاتها . . وما ذنب أبنائهم وزوجاتهم وأقاربهم لكى يتأذوا أذى نفسيا بالغا بذكر أسماء أعزائهم فى صحيفة واسعة الانتشار ، كالأهرام ، مقترنة بتجاوزات سبق الفصل فيها ، وعوقب عليها مرتكبوها ؟ . لكن هل يتعلم الإنسان إلا من تجاربه وأخطائه ؟ . لقد تعلمت الدرس من هذه القضية ، فلم أقع فى هذا الخطأ الإنسانى مرة أخرى طوال حياتى الصحفية ، ولم أدخل قاعة المحكمة مرة ثانية متهما بالقذف أو التشهير بأى إنسان تناولته فى تحقيقاتى الصحفية ، ذاكراً إياه بالاسم الصريح . أما تلك القضية ، فقد أقامها ضدى اثنان من الصيارفة ،تناولتهما فى تحقيقى بالتضامن مع رابطة الصيارفة أمام محكمة جنح عابدين بالقاهرة ، بالرغم من أن الصرافين المدعيين من سكان مدينة صغيرة بالأقاليم .

وذهبت إلى قاعة المحكمة مع المرحوم الدكتور جمال العطيفى ، المستشار القانونى للأهرام وقتها ، ووزير الثقافة والإعلام فيما بعد ، وجلست إلى جواره فى انتظار انعقاد الجلسة ، أتأمل الحاضرين ، وأبحث بينهم عن النماذج الفنية التى كان يكتشفها الحكيم خلال جلوسه على معقد النيابة . وصاح الحاجب « محكمة » ؛ فنهضنا ، ودخل القاضى بجلال ، وانعقدت الجلسة ، وبدأت القضايا ، فاستوقفتنى فيها قضية سرقة ضد شاب فى العشرين من عمره ، متهم بسرقة مبلغ من النقود من دولاب ملابس خالته . ونظرت القضية ، فوقف الشاب إلى جوار خالته أمام القاضى ، فرأيته شابا صغيرا شاحب الوجه ، يرتجف من الخوف . وقدرتُ أنه استسلم لإغراء الشيطان ذات مرة ؛ فسرق خالته ، ليلبى بعض احتياجاته من مطالب الشباب ، وربما انحرافاته ، ورأيت خالته الشابة تقف إلى جواره ، فأحسست فيها بعطف الأمهات وحيرتهن مع طيش الشباب ، ولم أشعر بأنها تحمل لابن أختها الواقف إلى جوارها أية ضغينة ، رغم جريمته فى حقها . . فقد تكفل الزمن خلال الفترة بين ضبط السرقة وعرض القضية على المحكمة بمسح الغضب من نفسها ؛ فبقيت المشاعر الإنسانية وصلة الرحم . ولعله بكى نادما بين يديها بعد ضبط الواقعة . . ولعلها حين رأت المسألة تدخل دور الجد وتصل للمحكمة ، قد ندمت على أنها لم تتنازل عن حقها ، وتكتفِ بتأديب الشرطة له .

ولم تخب توقعاتى ، فما إن سألها القاضى عن وقائع القضية ، حتى

فوجىء بها تقول له فى صوت مرتجف أنه لم يسرقها ، وأنها أنفقت النقود التى اختفت من دولاب ملابسها . . لكنها « نسيت » ذلك خلال إجراءات الشرطة ! .

كان كذبها واضحا . . فلم يفت على القاضى الذى خَبِر الحياة والنفوس البشرية طويلا ؛ فنظر اليها بفهم وتعاطف خفى ، وقال بصوت خفيض : أشفقت عليه فى النهاية! . . . فإذا بدموعها - وهى المجنى عليها - تنساب بغزارة ، وتقول للقاضى عنه أنه يتيم ، وأنها هى التى ربته ، لكنه الشيطان لعنة الله عليه ! .

نَقَلَ القاضى نظره من السيدة إلى ابن شقيقتها المتهم ، وهو يفكر فيما يتخذه من قرار . وأحسست بعبء المسئولية على ضميره . . إنه يستطيع بعبارة واحدة منه أن يهدم مستقبل هذا الشاب ،ويوقف دراسته . . ويدفعه للانحراف ؛ فيحكم عليه بالحبس، فيختلط داخل السجن بالمجرمين ، وتتأكد فيه نزعات الانحراف ، ويتخذ الجريمة طريقا له فى الحياة حتى النهاية . ويستطيع بعبارة ثانية أن يعطيه فرصة أخرى لإصلاح نفسه ، والعودة إلى الطريق القويم ، مكتفيا بما ناله من عقاب خلال إجراءات الشرطة، وفترة الحبس الاحتياطى قبل المحكمة .

وظل القاضى صامتا دقيقة وهو يسدد نظراته إلى الشاب شاحب الوجه المرتجف، فأحسبها قد مضت عليه كدهر ، وأحسبها أيضا قد مرت علىّ كساعة ثقيلة قضيتها وأنا أحبس أنفاسى انتظارا لقراره ، كأن مستقبلى معلق بشفتيه . . وأخيرا قال له القاضى :

إذا عفوت عنك هذه المرة ، هل تعدنى ألا تعود لمثلها أبدا ؟ ؛ فأسرع الشاب يقسم له ـ دامعا ـ بذلك ، فقال له القاضى : إذن اذهب ، وإياك أن تعود إلى ذلك مرة أخرى ، فإذا بزفرة الارتياح تخرج من صدرى وصدور الجالسين خلفى ، وعبارات الدعاء للقاضى بأن يكرمه الله جزاء إحسانه لهذا الشاب الضال تتصاعد من أرجاء القاعة ! .

ثم جاء دور قضيتى ، وكنت قد علمت قبل الجلسة بوفاة أحد الشخصين اللذين أقاما الدعوى ضدى ، فأسفت لذلك كثيرا ، ودعوت الله أن يغفر لى ما تسببت له فيه ولأسرته من آلام ، وأبلغت الأستاذ العطيفى بذلك ، فبدأ حديثه للقاضى طالبا إسقاط الدعوى بالنسبة لهذا المتقاضى لوفاته ، ولم يكن زميله حاضرا الجلسة ، ولم يأت سوى محاميهما ، وكان شابا قليل الخبرة ؛ فانتفض رافضا إسقاط الدعوى بالنسبة لموكله هذا . . لأنه لم يمت ! .

وشهدت أمامى فجأة حواراً لو أدركه الحكيم لسجله بقلمه المبدع فى كتابه ، فقد راح المحامى الشاب يرغى ويزبد ، نافيا وفاة موكله، والعطيفى يؤكد له وفاته، والقاضى يرقبهما صامتا ، ثم التفت المحامى الشاب إلى المرحوم العطيفى ، وقال له بتحد :

ـ أثبت أنه مات ! .

فاذا بالعطيفى يجيبه بهدوء : بل أثبت أنت أنه لم يمت ! ؛ فكدت ـ رغم جدية الموقف ـ أن أضحك لهذه المناظرة الغريبة . . ثم حسم القاضى الموقف موجها كلامه للمحامى الشاب : إننى أعرف هذا

المتقاضى ، لأنه من بلدتى ، وأعرف أنه مات فعلا منذ شهر ، لكن القاضى لا يحكم بعلمه الشخصى ، وإنما بما يعرض عليه . . لهذا أسألك : كيف تجىء إلى المحكمة ، وأنت لا تعرف ما إذا كان موكلك على قيد الحياة أم مات ؟ .

وأسقط فى يد المحامى الشاب ، واعترف بجهله بذلك . وعجبت لاندفاعه السابق فى تأكيد شىء ليس له به علم .

وانتهت الدعوى فيما بعد بالبراءة ، لثبوت صحة كل ما تناولته فى تحقيقى الصحفى من وقائع وأسماء ، لكن دروسها لم تغب عنى بعد ذلك أبدا .

وما من مرة وقعت عينى فيها من ذاك الحين على كتاب توفيق الحكيم هذا ، أو عدت لقراءة بعض فصوله أحيانا ، إلا وتذكرتها . . وأسفت لما تسببت فيه من آلام بغير قصد لخصومى فيها ، وضحكت لموقف هذا المحامى الشاب ، وحواره العجيب مع المرحوم العطيفى . وعرفت مع توفيق الحكيم أن قاعة المحكمة ماهى إلا مسرح آخر، كالمسرح الذى تقدم عليه الروايات ، لكن أشخاصه حقيقيون ، وأحداثه واقعية . . وقراراته بعيدة الأثر فى حياة الإنسان ! .

ذكريات العقل .. والجنون !

كانت حقاً ليلة من ليالى العمر ، لكن متى بدأت الفكرة على وجه التحديد ؟ لا أذكر؟ . كل ما أذكره هو أنى كنت فى زيارة صديقى الأديب أحمد بهجت فى بيته منذ بضعة أشهر فعرفت منه ـ خلال حديث عابر ـ أنه سوف يبلغ سن الستين قريباً . وتوقفت مذهولاً أمام هذه «الحقيقة»! . يا إلهى . . أهكذا كرَّت الأيام سريعاً وتوالت ، حتى كاد أستاذى « المجنون » أن يصل إلى شاطىء الستين .

إنى ما زلت أذكر ذلك اليوم البعيد الذى التقيت به فيه للمرة الأولى فى عام ١٩٥٨ ، وأنا طالب بالسنة الأولى بقسم الصحافة بكلية الآداب . ومازلت أتذكر منظره بالقميص والبنطلون ، وهو يجلس فى إحدى حجرات مقر مجلة روز اليوسف القديم بشارع محمد سعيد ، وأتسمَّع ضحكته المجلجلة التى كانت تهز أركان المبنى المتداعى القديم فى أول لقاء معه ، اصطحبنى إليه صديقى المرحوم مصطفى شردى ، وكان زميلا لى بالكلية ، حين سمع منى أننى تدربت لعدة أشهر فى روز اليوسف ، ثم انقطعت عن الذهاب إليها لجفاء الصحفى الكبير الذى

كنت أتدرب تحت إشرافه فى معاملتى ، ولعجزى عن التواصل معه . . فهو « زعيم» ماركسى ، يتعامل مع الآخرين بحذر وجفاء . . وأنا طالب عمرى ١٧ سنة وشهور ، وأحتاج إلى من يأخذ بيدى على طريق الصحافة ، ويترفق بى .

وهوَّن على المرحوم مصطفى شردى الأمر ، وقال لى :

سوف أعرفك بصديقى أحمد بهجت لتتدرب معه ، وسوف تجده إنسانا مختلفاً تماماً . . وسوف تستريح إلى صحبته . وذهبت معه إليه ، ووجدته حقاً نمطاً آخر ، ولوناً مختلفاً من البشر . فلقد أشعرنى بالألفة معه منذ أول لقاء ، وبأنه صديق أكبر منى سناً ، وليس رئيساً أو « زعيماً» لى ، فاقتربت منه ، وأحببته ، وتدربت معه ، وتعلمت منه . . وبعد شهور استأذنته فى الانقطاع لمدة شهر واحد عن التدريب ، لكى أستعد لدخول امتحان آخر العام ، فأذن لى ، ودخلت الامتحان ، ونجحت ، وعدت إلى مبنى مجلة روز اليوسف ، ففوجئت بمكتبه خالياً ، وزملائه يقولون لى ببساطة إنه انتقل إلى الأهرام . وأحسست على الفور أن علاقتى بدار روز اليوسف قد انتهت . . . فلقد ارتبطت فيها بشخص أحمد بهجت ، وليس بالدار .

وأسرعت إلى مبنى الأهرام القديم ، وكلى لهفة على معرفة أسباب انتقاله إليه . . ورحب بى « الأستاذ » ضاحكاً ، ومستبشراً كعادته ، وروى لى أن الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام ـ وقتها ـ قد قرأ له عدة تحقيقات فى مجلة صباح الخير التى تصدر عن دار روز اليوسف ، فأحس من سطورها بأن كاتبها صاحب موهبة مبشرة ،

واستدعاه وضمَّه لأسرة تحرير الأهرام ، وضاعف له مرتبه ، حيث كان فى مجلة (صباح الخير) يتقاضى عشرين جنيها كل شهر ، فعينه هيكل فى الأهرام بمبلغ خمسة وأربعين جنيها ! . وروى أصدقاء بهجت أنه حين تسلم هذا المبلغ « الخرافى » ـ وقتها ـ من خزينة الأهرام لأول مرة ، أحس بأنه أوناسيس صاحب الملايين ، وغادر مبنى الأهرام منتفشاً ، وركب سيارة أجرة . . وجلس فى المقعد الخلفى متعاظماً ، وسأله السائق عن وجهته ، فقال له بلهجة آمره : طف بى شوارع القاهرة كلها من جنوبها إلى شمالها ! .

وانتهى لقائى ببهجت فى الأهرام بأن قدمنى للأستاذ صلاح منتصر ، الذى كان يقوم فى ذلك الوقت بإنشاء قسم جديد للتحقيقات الصحفية، فعملت معه ، وبدأت علاقتى به ، لكن علاقتى بأحمد بهجت لم تنقطع يوماً واحداً منذ ذلك الحين ، واعتبرته دائما فناناً بوهيمياً مسرفاً ، لا يعرف أبداً الاستقرار المادى ، ويعشق الحياة والأدب والفن والصداقة ، ويتمرد على كل القوالب والقيود . . ويتهرب ـ كالتلميذ المشاغب ـ من أى ارتباطات للعمل أو الكتابة، ولا يكتب إلا مضطراً ، وتحت ضغط قهرى من الناشر ، الذى يقف فوق رأسه ، لينهى المطلوب منه ، أو من المخرج الإذاعى الذى يقدم له برنامجاً يومياً ، ويضطر للسهر معه حتى الصباح مرة كل أسبوع ، ليكتب له مادة البرنامج . ولو لم يفعل . . فهيهات أن « يتذكر» أحمد بهجت ، أو يفى بوعده .

لهذا كله . . لم أستوعب بسهولة أن يبلغ أحمد بهجت سن الحكمة

والجلال بهذه «السهولة » . وفكرت للوهلة الأولى فى أن نحتفل فى مجلة الشباب بهذه المناسبة ؛ فأبلغته أنى سوف أرتب له حفلاً فى مبنى الأهرام للاحتفال ببلوغه سن « الرشد » ، وليس سن المعاش ، لأن الشاب تكتمل أهليته القانونية ، ويصبح رشيداً قادراً على تحمل مسئولية حياته قانوناً فى سن الواحدة والعشرين ، أما الفنان البوهيمى مثله ، فإنه لا يبلغ سن الرشد إلا على شاطىء الستين ! .

وفزع أحمد بهجت فى البداية من الفكرة . . « واتهمنى » بأنى أريد أن « أفضحه » وأعلن للجميع أنه قد بلغ الستين ، فى حين أن كثيرات وكثيرين يتصورونه « شاباً » لم يفارق سن الشباب !

ولم أتوقف طويلاً عند اعتراضه . . فمع « فاقدى الأهلية » لا يجوز لنا الوقوف أمام اعتراضاتهم على ما نريده لهم من خير يتصورون هم بحماقة الشباب أنه ليس فى مصلحتهم ! .

وقررت أن يكون الاحتفال بعيد ميلاد أحمد بهجت ذلك العام احتفالاً غير تقليدى فى أشخاص المدعوين إليه . . وفى برنامج الاحتفال نفسه . . وفى كل شىء . وبدأت أتصل بمن سندعوهم للحفل ، فأكدت لى اتصالاتى بهم أن المناسبة غير تقليدية فعلاً . . فكل من كنت أتصل به تليفونيا لدعوته ، يضحك عاليا حين يعرف المناسبة ، كما لو كنت قد رويت له نكتة ظريفة ، قبل أن يجيبنى بالموافقة .

واتصلت بالأستاذ هيكل ودعوته ، فأجابنى بضحكة مجلجلة ، وهو

يتساءل متعجباً : أحمد بهجت ستين سنة ؟ . . سن الرشد ؟ مستحيل أن يرشد بعد كل هذا العمر ! .

واتصلت بالأستاذ نجيب محفوظ ، فضحك ، ووعدنى بالحضور ، رغم أنه لايخرج فى المساء ، لضعف البصر والسمع ، وضعف الصحة . . فأبلغته بأننا سنخصص له مرافقاً يصطحبه من البيت فى سيارة ، ويعيده إليه بعد الاحتفال . واتصلت بالفنان عادل إمـام ، ودعوته . . فانفجر ضاحكاً وهـو يقـول : أحمد بهجت ! ، دى الحكاية « عيِّلت » قوى ! . واتصلت بالدكتور مصطفى محمود ، فأجابنى ضاحكاً : أنا مريض بالأنفلونزا ، لكنى سأتحامل على نفسى وأحضر ، لكى أرى أحمد بهجت « رشيداً » لأول مرة فى حياته ! .

وبدأنا الاستعداد للاحتفال ، وقررنا ألا يزيد عدد المدعوين على ١٢ مدعوا من قمم الأدب والفكر والصحافة والفن ، إلى جانب أسرة تحرير الشباب ، وهم ٢٥ محررًا ومحررة، بعضهم تحت التمرين . وأعددنا لوحة كبيرة كتبها رسام الشباب ، تقول : مجلة الشباب تحتفل ببلوغ كاتبها الكبير أحمد بهجت سن الرشد !، ولوحة أخرى تحمل أسماء كتبه ومؤلفاته ، والكتب التى ترجمت منها إلى لغات أجنبية ، ولوحة ثالثة بعنوان : أحمد بهجت فى « أطواره » المختلفة ،تحمل صوراً له فى طور الشباب . .و« الطور » الرياضى حين كان من هواة السباحة والمصارعة! ، والطور الصحفى ، والطور الأدبى ، والطور الدينى . . ثم

أخيراً فى طور الرشد ، وتمثله فيه صورة كبيرة له مع كلبه الشهير العجوز سلطان ، وهما فى حالة تأمل وتبادل للأفكار .

وأعددنا له تورتة كبيرة وشمعة واحدة ، وقبل الاحتفال بيومين ، زرته فى بيته ، تحسباً لمفاجآته غير المتوقعة . . وخوفاً من أن ينسى موعد الحفلة ، أو « يهرب » منها ؛ فيضعنى فى أحرج موقف يمكن أن أواجهه .

وعرفت كيف « أخيفه » ، لكيلا يفكر فى ارتكاب أى حماقة مماثلة . . فقلت له أن الاستاذ هيكل سوف يحضر حفل تكريمه ، وهو الذى لم يدخل مبنى الأهرام القديم منذ غادره فى فبراير عام ١٩٧٤ سوى مرتين فقط . وأحمد بهجت مثله فى ذلك مثلى ، ومثل معظم جيلى الذى عمل تحت رئاسة هيكل ، وتعلم الصحافة على يديه . . «يتهيب» هيكل حتى الآن ، تهيب التلميذ للأستاذ ، رغم مضى ٢٠ عاما على خروج هيكل من الأهرام ، وانقطاع علاقه العمل معه ، بل إنى أتصور أن أحمد بهجت لا يتهيب إنساناً آخر فى الحياة سوى الأستاذ هيكل . . وأنه لو كان « هتلر » على قيد الحياة، وغزت جيوشه مصر واحتلتها ، لما أحسَّ بهجت تجاهه ببعض التهيب الذى يحسه تجاه هيكل ، وفاءً له ، واحتراماً لأستاذيته ، بالرغم من اختلاف الرؤى أو الآراء . .

واطمأننت ـ بعد أن نجحت فى إثاره خوفه القديم من أستاذه ـ إلى أنه سوف يحضر فى موعده . . واتفقت معه على الحضور قبل الموعد بنصف ساعة ، لنكون معا فى استقبال هيكل وضيوف الحفل .

ويوم الحفل ذهبت مبكراً إلى الأهرام بإحساس مختلف عن إحساس كل يوم ، فقد ضبطت نفسى أتلفت حولى متوجساً من أن أرى عقب سيجارة على الأرض . . أو ورقة ، خوفاً من أن يضبطها الأستاذ هيكل وينزعج وهو من رأيته ذات يوم فى الأهرام ينحنى على الأرض، ويلتقط عقب سيجارة مصعوقا ، ويتلفت حوله ، فيهرول المديرون باحثين عن « المجرم » الذى ارتكب هذه الجريمة ! .

واطمأننت إلى أن كل شىء فى موضعه الصحيح . . ثم جاء هيكل فياضاً بالحيوية والنشاط كعهده ، وسأل بهجت بلهجته القديمة المحبوبة : كيف تبلغ الستين بغير إذنى ؟ . وضحكنا . . وصعدنا معاً إلى مقر الاحتفال بقاعة البانوراما بالدور الثانى عشر من الأهرام .

وجاء الأستاذ نجيب محفوظ ،ولاحظت بأسى أن « معبودى » القديم فى الأدب قد وهنَ النظر والسمع منه ، لكن روحه الجميلة مازالت كعهدها . . نقاءً ، وصفاءً ، وتواضعاً ، ونبلاً ، ومازال ملكا من ملوك الضحكة الصافية ، والنكتة التى تثير التأمل. وضحكنا حين سأل بهجت ببراءة : هل هذه هى أول « ستين » فى حياتك ؟ .

وجاء الدكتور مصطفى محمود يحمل وسادته التى لا تفارقه فى أى مكان منذ شكا من آلام البواسير المزمنة بابتسامته الحيية . . وجاء سعد الدين وهبه يتوكأ على عصاه التى فرضتها عليه آلام الظهر ، وجاء الدكتور أحمد كمال أبو المجد وزير الإعلام السابق، والداعيه الإسلامى المستنير بشاشته . . وسماحة روحه وجاءت إسعاد يونس الفنانة

الأديبة، والكاتبة بمجلة الشباب . . ويوسف عوف الكاتب الدرامى الساخر . . والمهندس إبراهيم المعلم ـ مدير دار الشروق للنشر وصديق أحمد بهجت . . « وضحيته » الدائمة فى إخلاف مواعيد تقديم أصول الكتب . . وفى نسيان « مقدم » الثمن الذى تلقاه عن الكتاب الجديد . . والمطالبة بمقدم آخر عنه ، باعتبار أن ما فات مات . . ونحن أولاد النهاردة! . ثم دخل الفنان عادل إمام « بزوبعة » ضاحكة كعادته ، وهو يداعب أحمد بهجت ساخراً من سن الستين التى فقدت « احترامها» ببلوغ فتية طائشين لها ، مثل المحتفى به ! .

جاء الكاتب المستنير فهمى هويدى متأخراً عن موعده ، ومعتذراً عن تأخره ليشارك الجميع الاحتفال بأحمد بهجت .

والتف محررو الشباب حول هذه « النخبة » من أهل الأدب والصحافة والفكر والفن، التى يندر اجتماعها فى مكان واحد .

وبدأ الاحتفال . . ولم يكن احتفالاً بتكريم أحمد بهجت ، بقدر ماكان حفلا لمشاغبته ومشاكسته ، وتهوين « مسئولية » بلوغه سن الحكمة والجلال عليه . . . فلقد أدرتُ الميكروفون على كبار المدعوين لكى يقول كل منهم كلمة تحية لأحمد بهجت . . فإذا بمعظمهم ينتقلون بعد الإشادة به وبفنه وعطائه الأدبى والفكرى وأسلوبه المميز . . تلقائيا من الإشادة إلى المشاغبة وتذكيره بحماقات الشباب ! . . . حتى الأستاذ هيكل ، بعد أن ألقى كلمة بليغة عن أحمد بهجت ، استدرجه جو الحفل الغريب ، فروى لنا كيف تسبب له أحمد بهجت فى أزمة مع د . لويس

عوض، عجز - كرئيس تحرير - عن حلها وقتها ! . وأصل الحكاية أن المرحوم لويس عوض كان لا يحب القطط، فى حين كانت زوجته الفرنسية تقتنى ١٣ قطة ، وتفرضها عليه ، فانتهز فرصة سفرها إلى فرنسا فى زيارة لمدة شهرين ، وطلب من أحمد بهجت، المعروف بحبه للقطط والكلاب، بأن يعفيه من عناء خدمة قطط زوجته ، ويتسلمها منه ليربِّيها فى بيته ، إلى أن تعود زوجته من الخارج ، فيعيدها له . وتسلم بهجت القطط ، لكنه لم يحتفظ بها فى بيته ، وإنما أضمر فى نفسه شيئاً آخر ، وحملها فى حقيبة ، وذهب بها ، إلى سوق الليمون بالقلعة ، وأطلقها أمام محلات الجزارة المنتشرة هناك . . لكى تتغذى على فضلات اللحوم ، وتتحرر من قيود الحياة فى بيت لويس عوض ! .

واقترب موعد عودة زوجة الدكتور لويس ، فهرول إليه يطالبه بإعادة القطط . وبدأت المشكلة التى تحولت إلى أزمة .

وسمعنا حكايات أخرى كثيرة . . لا أظن أنى سمعت مثلها فى حفل « تكريم » إنسان ما ، بمناسبه بلوغه سن الستين ، لكن لا عجب فى ذلك . . فأحمد بهجت ليس « إنساناً ما» . . وإنما هو إنسان فريد حقاً فى موهبته وإخلاصه ووفائه للقيم والمبادىء والأصدقاء ؛ وكان لابد بالضرورة أن يكون حفل تكريمه فريداً أيضاً فى كل شىء .

أما شمعة الستين ، فقد أطفأها بهجت ، وقمم الأدب والصحافة والفكر يساعدونه فى « المهمة » ، وجيل الشباب الجديد حوله يغنى له بقيادة عادل إمام أغنية عيد الميلاد .

أما التحقيق الصحفى عن هذه المناسبة ، فقد أعددناه للنشر فى مجلة الشباب ، وطلب أحمد بهجت أن يكتب تعليقاً قصيراً عليه . . فذهبت إليه فى بيته ، وأطلعته على التحقيق قبل النشر ، فقرأه باهتمام ، وأمسك بقلمه ، وكتب التعقيب . . فإذا به يكتب أنه يرفض دخول سن الرشد ، ويرفض أن يتنازل عن جنونه وتوهجه ، لكى يقبع محنطاً فى سن الرشد والحكمة ، كما يقول بنص كلماته ، مؤكداً أنه لا يحس فى داخله ببلوغ سن العقل ، ناهيك عن سن الرشد والحكمة .

وانتهى من كلمته ، وأعطاها لى ، فقرأتها وسكت . . وسألنى : كيف ستنشرها ؟ ، فأجبته « قانطاً » :

ـ سأنشرها تحت عنوان كبير هو :

يا خسارة . . فلوس الحفلة ! . .

وانفجرنا معا ضاحكين ! .

كل سنة وأنت طيب يا صديقى الكبير . . وكل سنة وأنت متوهج حقاً وصدقاً بالجنون الأدبى والفكرى ، الذى يفرز لنا هذا الرحيق البديع كل يوم . . وبُعداً للحكمة والرشد إذا كانا سوف يحرمانا منه . وأهلاً بالجنون والحماقة . . إذا كان ثمنهما هو هذا العطاء .

ومرة أخرى . . حباً ووفاءً وعرفاناً :

ـ كل سنة وأنت طيب يا « أرشد » . . المجانين ! .

بعيداً عن الزحام

* يتشرف محمد حسنين هيكل وحرمه بدعوة ... وحرمه إلى غداء يوم . . الساعة ١٢ ، وذلك فى برقاش يوم ... البطاقة مطبوعة بحروف واضحة ، واسم المدعو مكتوب بالآلة الكاتبة . . ومكان الدعوة جديد بالنسبة إلىَّ ، ولم يسبق لى الذهاب إليه، لكن هيهات أن تفوت هذه المسألة على ذكاء الأستاذ هيكل ، وهو المعروف باهتمامه الدقيق بكل التفاصيل . . لهذا . . فالبطاقة مرفق بها خريطة صغيرة توضح للمدعو كيفية الوصول إلى مزرعة هيكل فى عزبة برقاش على مسيرة ٤٥ دقيقة تقريبا من شارع الهرم .

فاتتنى من قبل دعوة مماثلة للغداء فى مزرعته وبيته الريفى منذ ثلاثين عاما بالضبط ، دعا إليها ـ وهو رئيس لتحرير « الأهرام » ـ كل محرريه ؛ فأمضوا فى ضيافته يوماً جميلا . . وظلوا بعده أياما يحكون عن ذكرياته .

ترى أين ذهب ضيوف ذلك الغداء القديم الآن ؟ . . أين ذهب الشباب والفُتوة والصحة معهم ؟ . كان الأستاذ هيكل وقتها فى الأربعين من عمره ، وكان « شباب » الصحفيين الذين يخصهم باهتمامه وقتها فى



شرخ الشباب ، فأصبح معظمهم الآن يقتربون من سن التقاعد . . وبعضهم جاوزه بالفعل .

لعبت الأيام لعبتها الخالدة . . فتفرق « الشباب » . . بين أرجاء الكرة الأرضية . . وتقاعد معظم رجال جيل الوسط . . ورحل بعضهم عن الحياة . . واحتفل الداعى نفسه « الأستاذ هيكل » بعيد ميلاده السبعين منذ شهور ، لكنه لا يزال يتألق بالحيوية والذكاء والنشاط .

ركبت السيارة ، وتلمست الطريق إلى عزبة الأستاذ هيكل فى برقاش ، مستعينا بالخريطة الصغيرة . تفكرت خلال الطريق فى مناسبتها ، فلم أحتج إلى ذكاء كبير لأعرف أنها حفل يقيمه الداعى بمناسبة صدور كتابه الأخير « أكتوبر ٧٣ السلاح والسياسة » ، الذى احتل المركز الأول فى استفتاء مجلة « الشباب » عن أهم الكتب التى صدرت فى مصر خلال عام ١٩٩٣ .

من عادته أن يحتفل بصدور كل كتاب جديد له بدعوة من شاركوا فى مراجعته ، وطبعه ، وتوزيعه إلى حفل مماثل .

ولهذا فقد انتهيت من قراءة كتابه الضخم الذى تفضل بإهدائه إلىَّ فى الليلة السابقة للدعوة ، وكنت قد بدأت قراءته قبلها بأسبوع ، وحين حل موعد الدعوة ، تذكرت أنه قد بقيت منه ١٥٠ صفحة لم أقرأها بعد ، فسهرت أقرأها حتى الفجر ، كالتلميذ الذى يستعد للامتحان فيه صباح اليوم التالى ، أو كأنى خجلت من أن ألتقى به ، دون أن أكون قد أتممت قراءة كتابه ! .

لاحظت فى كتابه هذا وفى كل كتبه الأخيرة أن لغة هيكل قد ازدادت أناقة وجمالا ورصانة ، كأنما أتاح له اعتزاله العمل الصحفى منذ عشرين سنة وقتاً لم يكن متاحاً له من قبل لزيادة التأنق فى تعبيراته اللغوية . كما لاحظت أيضا أنه لا يزال يواصل هوايته فى نحت الكلمات والتعبيرات الجديدة التى تحمل بصمته الشخصية . أما حرصه على توثيق معلوماته بنشر الوثائق ومحاضر الجلسات ، وتسجيلات المحادثات التليفونية السرية بين صنّاع القرار ، فقد بلغ قمته فى هذا الكتاب الذى يضم ١٤٢ وثيقة لم تنشر من قبل ، ولا أدرى كيف حصل عليها الأستاذ هيكل ، الذى بدأ اهتمامه بالحصول على الوثائق منذ الخمسينات ، وفى وقت لم يكن أحد من الكتاب السياسيين فى العالم العربى كله قد تنبه فيه بعد إلى أهمية توثيق المعلومات بهذا الشكل المنظم .

اقتربت السيارة من عزبة الأستاذ هيكل كما نسميها . . وهى فيما أظن ٤٠ فدانا من الأرض الزراعية ، اشتراها فى أواخر الخمسينيات من أحد أعضاء مجلس إدارة الأهرام السابقين ، حين كان الأهرام ملكاً لآل تقلا ، و بقيمة مكافأة نهاية خدمته فى أخبار اليوم عندما انتقل إلى الاهرام فى عام ١٩٥٧ . وقد سمعت قبل أن أراها أنه أدارها بطريقة علمية ، كما يدير كل شئون حياته ، مستعينا بإرشاد صديقه الراحل المهندس سيد مرعى ، وزير الزراعة العتيد ، فأثمرت أضعاف أضعاف ما تثمره مزرعة مماثلة لها فى المساحة .

عند نهاية الممشى الخاص المؤدى إلى حديقة البيت ، وجدت «ساتى»

يقف فى انتظار الضيوف . وساتى هو سائق نوبى اسمه حسن ساتى ، له مع هيكل قصة وفاء نادرة ، فعندما أقال السادت هيكل من رئاسة الأهرام عام ١٩٧٤ ، اختار ساتى العمل معه كسائق خاص ، واستقال من الأهرام ، مضحياً بكل امتيازاته فيه ، مفضلا صحبة « الأستاذ » ـ كما يشير إليه دائما ، وكذلك فعل سكرتيره الخاص منير عساف .

رحب بى ساتى ، وأرشدنى إلى مدخل الحديقة ، فشاهدت على البعد حلقتين من الرجال والنساء . . ورأيت شخصاً يغادر مقعده فى إحداهما ، ويتجه إلىّ ومعه كلب ألمانى أصيل . . دققت النظر فى القادم إلىّ فإذا به الأستاذ هيكل الذى يستقبل كل ضيوفه عند مدخل الحديقة ، ويعود بهم إلى الداخل .

قادنى الأستاذ هيكل إلى الحلقة الصغيرة ، فصافحت فيها الأساتذة : لطفى الخولى ، وأحمد بهجت ، وسلامة أحمد سلامة ، وآخرين ، ثم قادنى إلى الحلقة الواسعة التى تضم الزوجات ، وضيوفاً عديدين ، وسلمنى لقرينته الفاضلة السيدة هدايت تيمور ، طالباً منها تقديمى لهم .

صافحت الجميع ، وعدت إلى حلقة الأستاذ هيكل الصغيرة ، لأستمتع بالاستماع إليه . . . فالاستماع إلى هيكل متعة لا تدانيها متعة أخرى ، وهو من القلائل الذين يجيدون الكتابة والكلام على نفس المستوى ، وعلى عكس الشائع بين أهل الكتابة والرأى فى عالمنا العربى على الأقل . . . فكثيرون ممن يجيدون الكتابة ليسوا متحدثين جيدين ،

وكثيرون ممن يجيدون الحديث أمام جمع من المستمعين أو أمام كاميرات التليفزيون . . ليسوا من المبرزين فى الكتابة وأساليبها ، لكن هيكل من أهل الكلام الساحر ، إلى جانب سحر أسلوب الكتابة ، وعادتى مع أمثاله ألا أفوّت على نفسى متعة الاستماع إليهم بالانشغال بالكلام معهم أو مع غيرهم ، فيكاد يقتصر حديثى معهم على « مفاتيح » قصيرة أثير بها شهيتهم للكلام ، أو قل . . . أستدرجهم بها للحديث والإفاضة ، وأستسلم بعد ذلك لمتعة الاستماع والاختزان والاستفادة . اعتقادى فى ذلك . . أنى قد أعرف منهم فى جلسة مماثلة ، ما قد يوفر علىَّ عناء قراءة كتاب تجهد العيون المتعبة ، وترهق الذهن . . أليست هذه هى نفسها وسيلة القدماء فى طلب العلم ، حين كانوا ينتقلون من مدينة إلى مدينة «للسماع » عن علمائها وشيوخها ؟ ، وألم يقل الإمام أبو حامد الغزالى : الرحلة فى طلب المعرفة ولقاء المشيخة . . مزيد كمال فى طلب العلم ؟ .

إن كل إنسان ، خاصة إذا كان ممن ينطبق عليهم وصف « المشيخة » فى المعرفة ، يعرف شيئاً كثيراً لا أعرفه . . ولو عرفت منه بعض ما يعرف، لأضفت إلى معارفى الجديد بلا عناء . . فلماذا إذن أفسد على نفسى الفرصة بأن أتكلم أنا ؛ وأحرم نفسى من الاستفادة منها ؟! .

هكذا أقول لنفسى دائما ، كلما التقيت بأديب كبير ، أو رجل علم ، أو دين معروف، لكن آفة المجالس دائما هم هؤلاء الذين أشار إليهم الروائى الأمريكى ارسكين كالدويل فى مذكراته على لسان صاحب مكتبة قال له : إن المثقفين لا يشترون الكتب منه كثيراً لأن همَّ كل واحد منهم

هو أن يسمع نفسه يتكلم ! . والكارثة أنه فى كل مجلس غالباً لابد من واحد من هؤلاء الذين يحبون أن يسمعوا أنفسهم يتكلمون . . فيشوّشون على من نريد السماع منه . . ويضيقون عليه فرص الكلام ، وكلما تكلم قاطعوه، وأمسكوا هم بطرف الحديث ، رغم احتجاجنا الصامت ، وكراهيتنا للحديث والمتحدِّث معاً ! .

إننى أبحث عن تفسير لهذه « الظاهرة الكلامية » منذ ثلاثين عاماً، دون جدوى . . ظاهرة جرأة السخفاء على الكلام فى حضرة العلماء ، دون مراعاة لمشاعر الآخرين ، ورغبتهم فى الاستماع لمن سعوا إلى لقائه ليسمعوا منه .

منذ عشرين عاما أو أكثر ، كنت أسعد بكل فرصة يأتى فيها الدكتور لويس عوض إلى نقابة الصحفيين ليجلس معنا فى حديقتها . . وأتحفز لاستدراجه إلى الكلام لنتعلم منه بعض معارفه فى الأدب الإنجليزى والعربى ، والمذاهب السياسية ، إلخ . . فما إن أسأله سؤالاً، حتى « يغلوش » عليه زميل آخر لم يقرأ كتابا واحدا فى حياته ، ويبدأ فى حديث تافه عن الطعام والشراب ، أو أى شىء مماثل ، ويحرمنا من سماع إجابة لويس عوض ، ويتكرر نفس الشىء فى معظم الجلسة . وإذا زرت ندوة الأديب العظيم نجيب محفوظ الاسبوعية ، فسوف تكتشف أنه أقل الحاضرين كلاما ، وأن أكثرهم كلاما هم أقل الحاضرين شأنا وعلماً وقبولا من المستمعين . . فهل عندك تفسير لهذه الظاهرة المحيرة؟ .

لقد تكررت للأسف فى جلستنا مع الأستاذ هيكل . . وكلما سألناه سؤالا، وهَمَّ بالإجابة ؛ « غلوش » عليه واحد ممن يحبون سماع أنفسهم يتكلمون ، فيمنع الرجل أدبه مع ضيوفه من مقاطعته ، ويلوذ بالصمت، إلى أن ألح عليه أنا فى الإجابة ، بعد أن يشبع الآخر من إسقامنا بحديثه . ومع ذلك . . فلم تكن الخسارة كاملة . . فلقد كافحنا بدأب مع المقاطع الدائم لكى يترفق بنا ، ويدع لنا فرصة لسماع هيكل . . وهو مخزن أسرار وذكريات سياسية وصحفية لا ينضب ، كما أنه واسع المعرفة فى العلوم السياسية والتاريخ والاجتماع أيضا . . وأذكر أنى سألته يوماً عن سر رصانة أسلوبه الأدبى، رغم تأثره بالتراكيب اللغوية الإنجليزية فى الكتابة ، وقلت له أنه يندر أن يمتلك كاتب مثل هذا الأسلوب الرصين ، بغير أن يكون قد تربى فى مدرسة القرآن اللغوية، ففاجأنى بأنه قد حفظ القرآن فى طفولته وصباه ، وأن هذه الرصانة لابد أن تكون من آثاره . . ففهمت سر المعادلة ولم أعجب لها ! .

صدقت توقعاتى . . ورأيت بين ضيوف هيكل كل من كان لهم دور فى طبع كتابه ومراجعته وتوزيعه . . وعرفت أن الدعوة هى حفل الكتاب . . ولفتت انتباهى حديقة البيت التى خمنت ـ وفقاً لمعرفتى بالمضيف وأسلوب حياته ـ أنها لا يمكن أن تكون عملا اجتهاديا . . وأنه لابد قد أحضر لها منسق حدائق متخصصا ، وربما كان أجنبيا أيضا، فالحديقة ليست حديقة بيت ريفى ، وإنما حديقة من حدائق القصور التى شاهدتها فى أوروبا . والبيت نفسه ليس مجرد بيت ريفى

يأوى إليه صاحبه فى عطلة نهاية الأسبوع، وإنما هما بيتان ، لكل منهما حديقة رائعة ، ويبدو أن أحدهما للأسرة ، والآخر لضيوفها ، وأبرز ما تلاحظه عليهما هو الذوق الرفيع المتأثر بالذوق الإنجليزى العريق فى تأثيث البيوت .

أما الغداء . . فكان ـ كما قال هيكل ـ مما يتميز به بيته الريفى ، الذى يشتهر ـ كما يقول ـ بصنفين من أنواع الطعام ، هما : الخروف المشوى . . والفطير المشلتت . . وأما الصحبة فكانت جميلة وممتعة ، وإجازة سعيدة من سباق المدينة وزحامها . . وأما أجمل ما بقى فى ذاكرتى منها ـ إلى جانب حديث صاحب الدعوة ، ورقة قرينته ، وابنه الطبيب الشاب ـ فكان هذا المشهد ، الذى قلت معلقا عليه فيما بعد : إنك تحب الدنيا حين تراه .

فقد داعب لطفى الخولى قرينة هيكل ، حين جاءت تستشيره فى موعد الغداء، فسألها . . ألا تقررين شيئا بدون رأى الأستاذ هيكل ؟ . أليست فى بيتك ديمقراطية؟ ، فأجابته بتحدّ ظريف ، وهى تلف ذراعها حول عنق رفيق عمرها : لقد مارست الديمقراطية مرة واحدة فى حياتى حين اخترته ، وبعد ذلك تنازلت له عن الديمقراطية ، ويسعدنى أن يقرر هو كل شىء نيابة عنى !. . فضحك هيكل ، وربت على يدها التى تطوق عنقه بحنان ، وضحكنا معه مبتهجين .

وحين غادرت عزبة هيكل فى الخامسة مساء ، رافقنى طوال الطريق

فى مخيلتى هذا المشهد الجميل للأستاذ هيكل ، وهو فى السبعين من عمره ـ أمد الله له فيه ـ والسيدة قرينته ، وربما كانت فى الستين من عمرها أو أكثر . . ورحلة عمر من الحب والعطاء والوفاء والاحترام المتبادل تجمع بينهما . . تؤكد لأصحاب العقول أن الحب الصادق الحقيقى قادر بحق على تحدى الزمن .

الاسم الخاطىء !

حين حضرت حفل مجلة « سيداتى سادتى » بمناسبة صدورها ، «شاركنى » السهرة طوال الوقت أستاذنا الراحل عباس العقاد . . و«جلس » معى إلى مائدتى بجوار صديقى الأديب أحمد بهجت ، والمذيع اللامع محمود سلطان ! . . . العقاد ؟ ماذا يربط بينه وبين حفل ساهر فى فندق سميراميس كونتننتال . . أو بينه وبين مجلة «سيداتى سادتى » الجديدة ؟ .

أجيبك عن السؤال . . يربط بينه وبينها اسم المجلة الذى ظللت أسمعه طوال السهرة . . فقد كنت كلما تحدث أحد ضيوف الحفل عن المجلة الجديدة ، ورحب بها ، قفزت صورة الأستاذ العقاد إلى مخيلتى . . فأتخيله مدعواً معنا إلى نفس الحفل . . يجلس بين الحاضرين بقامته الطويلة ، وكوفيته الشهيرة حول عنقه ، ينظر إلى الجميع من علٍ . . ثم يجىء إليه مذيع الحفل الفنان رمسيس ، ويقدم له الميكروفون ، طالباً منه كلمة تحية للمجلة الجديدة ، كما فعل مع كثيرين غيره ، فينتفض العقاد غاضباً ، ويقول لرمسيس بحدّة : كيف تجرؤ يا أفندى على أن تطلب

من العقاد أن يحيّى مجلة تقدم السيدات على السادة فى اسمها ؟ . اذهب إلى رئيسة تحريرها ، وأبلغها أن العقاد يرفض أن يحيِّى المجلة الجديدة ، إلا إذا غيرت اسمها إلى سادتى سيداتى ! .

ولو حدث هذا تماماً كما تخليته وأنا أشهد الحفل ، لما استغربته من العقاد . . فلقد كانت الإذاعة المصرية تقدم فى الخمسينيات حديثاً يومياً اسمه حديث السهرة ، يذاع فى التاسعة مساء كل يوم ، ويتناوب تقديمه كبار أعلام الأدب والفكر فى مصر وقتها ، فكنا نسمع فيه صوت طه حسين ، والعقاد ، والدكتور أحمد أمين ، والدكتور إبراهيم بيومى مدكور ، والدكتورة سهير القلماوى ، والأستاذ أحمد حسن الزيات والأستاذ فكرى أباظة ، ونحفظ الموعد الأسبوعى لحديث كل منهم ، وننتظره بلهفة ، ونتعلم منه ونضيف إلى معارفنا الجديد .

وحين بدأت الإذاعة المصرية هذا البرنامج ، لم يكن لكل هؤلاء سابق خبرة بالتعامل مع ميكروفون الإذاعة ، فقام أحد كبار المسئولين فيها بإرشادهم إلى طريقة التعامل مع الميكروفون . . ولفت أنظارهم برفق إلى أن يبدأوا حديثهم للمستمعين بعبارة تقديم ثابتة، هى : سيداتى سادتى ، واستجاب له كل المتحدثين ، ماعدا واحداً فقط ، هو الأستاذ العقاد ! . . . فلقد استنكر أن يقدم النساء على الرجال فى بداية حديثه ، وأصر على الرفض ، فكان كل المتحدثين يفتتحون حديث السهرة بعبارة : سيداتى سادتى ، أما هو ، فقد ظل يقدمه منذ أول حديث إذاعى له ، وإلى أن رحل عن الحياة ـ رحمه الله ـ فى عام ١٩٦٤ ، بعبارة

واحدة ، هى : « أيها السادة والسيدات » ! ، ولم يقتنع أبداً بكل ما قيل له عن قواعد البروتوكول . . أو التقاليد الإذاعية . . بل ولم يُخفِ استياءه من زملائه الذين استجابوا لهذه « الخزعبلات » ، وقدموا السيدات على السادة فى حديثهم . . وخص بضيقه المرحوم فكرى أباظة الذى لم يكن يكتفى بتقديم السيدات على السادة ، وإنما أضاف إليهن أيضاً الآنسات، فكان يقول فى بداية حديثه : « سيداتى آنساتى . . سادتى »، ويظل يرددها بين فقرات الحديث ، كأنما يغيظ بها العقاد وأمثاله من أصحاب الفكر المحافظ ! .

ولم يكن هذا الموقف جديداً على العقاد ، فلقد روت السيدة فاطمة اليوسف فى كتابها الممتع « ذكريات » أنها حين أصدرت جريدة روز اليوسف اليومية عام ١٩٣٥ ، والتى صدرت لحوالى عامين ثم احتجبت، كلفت زميلاً صحفيا بمفاتحة العقاد فى أن يكتب المقال الافتتاحى للجريدة الجديدة كل يوم ، مقابل مرتب كبير ، فسأل العقاد محدثه عن اسم الجريدة الجديدة ، فأجابه بأن اسمها سيكون « روز اليوسف » اليومية ، وهو اسم السيدة فاطمة اليوسف الفنى ، حين كانت ممثلة فى مسرح رمسيس فى شبابها، فاعتذر العقاد على الفور عن عدم الكتابة فى الجريدة ، وقال لمن طلب منه ذلك : أنا لا أكتب فى جريدة تحمل اسم « واحدة ست » ! .

ولم تيأس السيدة فاطمة اليوسف ، وإنما كلفت صديقا آخر للعقاد بمحاولة إقناعه . . وأكد الصديق له أنه لا مفر من أن تحمل الجريدة

اسم صاحبتها ، لكى تستفيد من ذيوع اسم مجلتها الأسبوعية التى تحمل نفس الاسم . . وقبل العقاد بصعوبة الكتابة فى الجريدة ، بعد أن أكد له الصديق أنها ستصدر على مبادىء حزب الوفد الذى يؤيده العقاد .

وصدرت الجريدة تحمل مقاله الافتتاحى فى صفحتها الأولى كل يوم . . ثم عاتبته السيدة فاطمة اليوسف بعد ذلك على اعتراضه السابق على الكتابة فى جريدتها لهذا السبب الغريب ، فلم يتنصل من موقفة ، وإنما فسره لها بأنه يعترض على أن تحمل أية جريدة اسم أى شخص، مهما كان شأنه ، ولو كانت الجريدة الجديدة ستحمل اسم سعد زغلول زعيم الوفد ، لأبدى نفس الملاحظة ! .

وقبلت فاطمة اليوسف منه هذا التفسير ، واستمر تعاونهما معا حتى أغلقت الجريدة أبوابها ، بعد اصطدامها بحزب الوفد، وخروجها منه .

ومع كل ذلك . . فلم يكن العقاد معادياً للمرأة ، كما توحى بذلك بعض مواقفه . . ولا كان كارهاً لها ، لكنه فقط كان شديد الاعتداد بنفسه وبجنسه من الرجال ، الذى رأى فيه ـ خطأ أو صواباً ـ أنه جنس يتفوق على جنس المرأة ، حتى فى الأعمال التى اشتهرت المرأة بأدائها ، كالطهو ، وخياطة الملابس، والتوليد ، وراح يؤكد فى كل مناسبة أن الطاهى الرجل أنجح فى عمله من المرأة الطاهية ، مع أن الطهو هو مهنتها الأثيرة منذ فجر البشرية ، وأن مصمم الأزياء الرجل أنجح من مصممة الأزياء المرأة ، مع أن الأزياء هوايتها واهتمامها الأول ، وأن

الطبيب المولد ، أنجح فى عمله من « الداية » التى تمارس مهنتها منذ الأزل .

ورغم أنه قد عاش وحيداً ومات وحيداً ، فقد انتحرت بعد موته بأيام فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، قالت أمها أنها أنجبتها من العقاد الذى تزوجته زواجاً عرفياً سرياً ، وأنها كانت تزوره فى مسكنه بمصر الجديدة كل يوم ثلاثاء ، فلم تحتمل الفتاة ـ التى كان العقاد يحنو عليها ـ صدمة رحيله ، وهرولت مع أمها إلى بيت العقاد حين علمتا بوفاته ، ودخلت الفتاة« بدرية » غرفة نومه ، وألقت بنفسها على صدره ، وصرخت وولولت وانحنت على الأرض فى مشهد فريد ، سجله بقلمه الرائع الأستاذ أنيس منصور فى كتابه الممتع عن صالون العقاد ، وراحت تلعق أحذيته العشرين المرصوصة تحت فراشه ، وتقبل قدميه ، ثم هجمت على زجاجات الأدوية التى كان يتعاطاها الأستاذ ، وأفرغت معظمها فى حلقها ، وابتلعت كل الحبوب ، ومزقت ملابسها وشعرها ، ونزعت بيجامة العقاد ، ولفتها حول جسمها ، ودارت بها حول نفسها . . ثم هرولت خارجة من الشقة ، وبعد ساعات ابتلعت زجاجة حبوب منومة ، ونقلت إلى مستشفى دار الشفاء ، وماتت فيه .

وبعد وفاة العقاد ، وكلت أمها محامياً معروفاً للدفاع عن حقوقها لدى ورثة العقاد ، فلم يستطع أن يثبت زواجها من العقاد ، ولم يثبت وجود عقد الزواج ، ولم تثبت بنوة الفتاة المنتحرة للعقاد العظيم .

وفى دولاب العقاد ، وجدوا بين الأشياء التى احتفظ بها حتى آخر يوم

من عمره ، أسطوانة صغيرة ، مسجلاً عليها صوت هذه الفتاة وهى طفلة صغيرة ، تناديه بكلمة «بابا » ، وبلوفراً أهدته إليه فنانة معروفة أحبها العقاد فى شبابها ، وسعد بحبها لفترة ، ثم تعـذب بزحـام الرجـال حولهـا ، وبالشك فيهـا ، فغالب نفسه بإرادته التى تتحدى المستحيل ، وأخرجها من قلبه ومن حياته ، وقال عنها فى قصيدة قصيرة له اسمها «حمق الحب » :

مـا كنت أجهل من عيوب صفاتها

عيباً ، ولكـن كـل حـب أحمـقُ !

كما وجدوا فى دولابه أيضا رسائل الأديبة « مى زيادة » إليه ، ورسائله إليها ، وقد كان العقاد أحد الذين كتبوا إليها وكتبت إليهم ، وجمعت بينها وبينهم علاقة أعمق من الصداقة ، وأقل من الحب ، أو كانت ـ بمعنى آخر ـ حباً عذرياً « فكرياً » ، أكثر منه شيئاً آخر ، وكانت خطاباته إليها قطعاً من أدب الرسائل الرفيع ، تتناول قضايا فكرية وعاطفية ، وكان يبدأها دائما بعبارة : « سيدتى الآنسة » ! .

وهكذا وجدتنى . . أرقب حفل « سيداتى سادتى » ، وأسرح بذهنى بعيداً عنه ، فأتذكر العقاد . . وأسترجع مشاهد عديدة من حياته ، وأتصور أنه لو رجع إلى الحياة الآن ، لانعقد لسانه من الدهشة ، لكثرة عدد المجلات التى ترأس تحرير كل منها «واحدة ست » ! ، ولهالته أيضا كثرة عدد المجلات التى تحمل أسماءً نسائية فى كافة أنحاء الوطن

العربى، وتقدم المرأة على الرجل ، لا فى أسمائها فقط ، وإنما فى اهتماماتها، وعنايتها بها ، ولذهل لتغير الدنيا كثيراً عما كانت عليه فى أيامه . ومع ذلك . . فمازلت أشك فى أنه كان سيقبل أن يحيى مجلة « سيداتى سادتى» قبل أن «تصحح» اسمها !

ويا أستاذنا العقاد . . رحم الله أيامك ، وأيام « الرجال » معك ، إذ لم نعد فقط لا نعترض على صدور مجلة جديدة تحمل مثل هذا « الاسم الخاطىء » ، بل وأصبحنا أيضا نسعد بها . . ونتهلل لصدورها . . و«الكارثة » أننا نفعل ذلك بصدق وحب، وليس عن مجاملة ! .



الأسد الجريح

ذهبت أعزى صديقا لى فى وفاة والده . جلست فى سرادق العزاء أستمع إلى آيات الذكر الحكيم ، إلى أن توقف القارىء فى استراحة ، وهممت بالانصراف إلى عملى . . فإذا بالصديق يتحدث فى الميكروفون عن أبيه وشجاعته ووطنيته ، فعدت إلى الجلوس، واستمعت إلى خطبة الابن عن أبيه باحترام شديد . واستدعت كلماته إلى خاطرى بعض التأملات القديمة .

تأسرنى دائما علاقة الابن بأبيه ، حين تتحول إلى صداقة عميقة بين شخصين راشدين يتبادلان الحب والإعجاب والاحترام . إنها أسمى أنواع الصداقة وأعمقها أثرا، وقليلون هم الذين يعرفون مدى تأثيرها على شخصية الابن طوال حياته . . فالابن امتداد طبيعى لأبيه ، وتأثره بشخصيته أعمق من أن يكتشفه هو نفسه فى كثير من الأحيان . وإذا كان العرب قد قالوا قديما فى أمثالهم « كل فتاة بأبيها معجبة » ، فلأن الفتاة أكثر عاطفية ، وأكثر ميلا للتعبير عن مشاعرها تجاه الأب ، أما الابن ، فقد يكون أقل تعبيرا عن هذه المشاعر بالكلمات والألفاظ ، لكنه

مشدود إليه بخيوط رفيعة من الصلب ، لا يراها ، وبعض مزاجه النفسى يسرى إليه من أبيه ، بغير أن يحس أو يعرف .

وكلما تلامست مع مثال جديد لعلاقة الابن الراشد الحميمة بأبيه ، قفزت إلى خاطرى الصورة الانسانية النادرة التى رسمها بقلمه الزعيم والمفكر الهندى جواهر لال نهرو فى مذكراته لأبيه المحامى الكبير . المناضل ضد الاستعمار ، حين حضرته الوفاة . . . فقد اشتد المرض بنهرو الأب فى مدينة الله أباد ، فى الوقت الذى كانت تنعقد فيه بنفس المدينة اجتماعات المكتب سياسى لحزب المؤتمر ، الذى كان الأب والابن من زعمائه ، وشارك نهرو الابن فى هذه الاجتماعات بذهن غائب مهموم بأبيه الذى اشتد به المرض ، ولم يعد يستطيع مغادرة الفراش .

وحرص زعماء الحزب على زيارة الأب فى فراش مرضه ، ليودعوه الوداع الأخير ، قبل أن تقبض عليهم السلطات البريطانية مرة أخرى ، فراحوا يأتون إليه فى مجموعات صغيرة لزيارته ، فيصر الأب ـ رغم ضعف جسده وشدة مرضه ـ على أن يجلس فى فراشه تحية لهم . ويصف نهرو الابن هذا المشهد بقلمه ، فيقول : « كان يجلس فى فراشه كالأسد الجريح الذى ذهبت قوته ، لكنه ظل محتفظا بمهابته وجلاله » . وانتهت اجتماعات المكتب السياسى ، وتفرغ الابن لرعاية أبيه . . فلاحظ فجأة أن وجهه قد خلا من كل آثار الانفعال ، واكتسى بهدوء جليل ، فظنه قد استسلم للنوم ، وفرح بذلك ، وطلب من أمه عدم إزعاجه ، لكن قلب الزوجة كان أكثر إدراكا للحقيقة ؛ فأطلقت صيحتها ؛ وعرف نهرو أن الأسد الجريح قد لفظ آخر أنفاسه .

وتمت مراسم حرق الجثمان على ضفاف نهر الجانج ، وشارك فى وداعه ملايين من الهنود فى موكب حزين ، وغرق نهرو فى أحزانه على أبيه العظيم، وبعد قليل سافر إلى سيلان ليلتمس العزاء فى البعد عن مواطن الأحزان ، وسجل ذلك فى مذكراته قائلا : « وبعد ثلاثة أشهر ذهبت مع زوجتى إلى سيلان ، وذكراه لا تفارقنى ، حتى إننى نسيت عدة مرات أنه قد مات ، وفكرت فى استدعائه ليرافقنى فى هذه الزيارة ، كما فعلت مرارا من قبل ، وهممت أكثر من مرة بأن أرسل له برقية ، أطالبه فيها بالحضور، ثم أتراجع فى كل مرة حين أتذكر أنه قد رحل عنى» .

وأفقت من تأملاتى مع انتهاء الخطبة ، ونهضت عائدا إلى عملى مشحونا بالذكريات ! .

إنت مين ؟

شكا لى صديق من جحود فنان كان يعرفه منذ زمن طويل ، وقدم له خدمات عديدة مؤثرة وهو يتعثر فى خطوات البداية ، وشجع موهبته ، وأعانه على أمره بما يستطيع ، فكان هذا الفنان لا يكف عن الإشادة بفضله ومساندته له . . ويبالغ فى ذلك أحيانا إلى حد المغالاة والنفاق ، ثم حقق ذلك الفنان نجاحه بعد ذلك ، وأصبح نجما مسرحيا معروفا وناجحا ، وفرقت مشاغل الحياة بين الاثنين ، حتى مضت عشر سنوات كاملة لم يلتقيا خلالها مرة واحدة ، ولم يجر بينهما أى اتصال ، ثم جمعتهما الصدفة فى أحد الاجتماعات العامة منذ فترة قصيرة ، فرأى الصديق الفنان الذى كان يخطب وده فى الماضى ، ويحرص على مجاملته ، وينتظره كل ليلة إلى أن تنتهى سهرته بالمقهى ليركب معه سيارته ويرجوه أن يوصله إلى بيته فى طريقه . . فتوقع أن يبادره الفنان بالتحية ، وتوقع الفنان فيما يبدو أن يهرع إليه الصديق كما يهرع إليه المعجبون ، فلما لم يفعل ؛ تجاهله تجاهلا تاما ، فكأنما لم يعرفه من قبل ، ولم يلتق به ذات يوم ! .

وقال لى هذا الصديق متألما : هل رأيت كيف تتغير النفوس الضعيفة

بالنجاح والثراء... ؟!. لقد كنت أحبه زمان ،لأنه كان إنسانا مكافحا، وبارا بأهله البسطاء، لكنه يبدو أن البشر يتغيرون مع الزمن ، ولا يبقى على معدنه إلا الأصلاء منهم فقط !.

وطيبت خاطر صديقى ، وهونت عليه الأمر ، ورويت له من نماذج هذا الجحود الإنسانى القديم قدم البشرية ما يخفف عنه إحساسه بالمرارة تجاه هذا الفنان ، ثم غادرنى الصديق ، فوجدتنى أتأمل هذه النقيصة البشرية طويلا ، وأتعجب لتاريخ الإنسان القديم معها ! . . . فمنذ قديم الزمان . . . والإنسان يشكو من جحود بعض الأصدقاء وتنكرهم له، بعد أن ينالوا حظهم فى الحياة . ومنذأكثر من أربعة آلاف سنة كتب شاعر فرعونى قديم قصيدة غريبة ، يشكو فيها من الزمن والناس ، ويقول :

لمن أتحدث اليوم

والإخوان أشرار

والأصدقاء هجر الحب قلوبهم ؟

والإنسان الطيب يتأخر

والإنسان الصفيق يتقدم الصفوف ؟

وفى المأثور الشعبى هناك دائما أغنية أو موال يصور موقفاً إنسانيا شبيها بالموقف الذى تعرض له صديقى مع هذا الفنان الجاحد ، وهو أن تلتقى بعد فراق طويل بشخص كانت تربطك به صداقة حميمة ، ثم

فرقت بينكما الأيام ، فتقبل عليه بإحساس الصديق القديم ، وتفاجأ بتحفظه معك ، وفتور مشاعره تجاهك، وحرصه على إشعارك بأنكما لم تعودا صديقين كما كنتما فى الزمن القديم ، فتخبو فرحتك بلقائه ، وتشعر بالخجل من نفسك ، وتغادره ممرور النفس ، كارها للحياة ! .

ومن أجمل ما سمعت فى هذا الشأن أغنية شعبية قديمة لمطرب صعيدى ، كانت له شهرته بين الصعايدة فى مدينة الاسكندرية فى الستينيات ، واكتشفته بالصدفة خلال زياراتى لأصدقائى بالثغر ، وأغرمت بصوته المحمل بالشجن ، وبكلماته البسيطة المعبرة بصدق عن الشخصية المصرية الشعبية ، وتعودت كلما ذهبت إلى الإسكندرية بعد ذلك أن أبحث عن « الفرح » الذى يغنى فيه . . وأتوجه إليه مع أصدقائى بلا دعوة ؛ فيقابلنا أصحابه من أبناء البلد الكرماء بالترحيب ، ويزداد ترحيبهم بنا حين يعرفون أننا من محبى هذا المغنى الصعيدى الأصيل . ولم يكن الاهتداء إلى المكان الذى يغنى فيه يكلفنا أكثر من أن نسأل أى بائع فاكهة صعيدى فى ميدان المنشية : أين يغنى الريس حفنى الليلة ؟ ، حتى يجيبنا على ما نسأل عنه ، أو يدلنا على من يساعدنا فى الوصول إليه . . فلقد كان نجم أفراحهم الأول . . ولابد أن يكون «محجوزا » للغناء فى إحدى هذه المناسبات خلال زيارتى للإسكندرية . وقد كان يحيى الليلة كلها وحده مع فرقة موسيقية ، لا يزيد أفرادها عن خمسة ... ويقدم فاصلا غنائيا لمدة ساعة كاملة، ثم يستريح لنصف ساعة ، قبل أن يعود للغناء مرة أخرى طوال الليل ! ، كما كان يؤلف

أغانيه بموهبة فطرية أصلية، ويجيد تصوير أحاسيس الإنسان المصرى البسيط، مع أنه لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة .

ومؤكد أنه قد تعرض فى حياته الشخصية لهذا الموقف الإنسانى الشائع بين من تفرق بينهم الحظوظ فى الدنيا ، وإلا لما استطاع تصويره فى هذه الأغنية الشعبية بمثل هذا الصدق الإنسانى الغريب . . فلقد كانت الأغنية تحكى أنه قد التقى فى المدينة بشخص كان صديقا له فى طفولته وصباه فى القرية البعيدة البائسة ، فما أن رأى صديق الطفولة - الذى مازال يحمل له أجمل المشاعر والذكريات - حتى تهلل لرؤيته ، وأقبل عليه يريد معانقته ففوجىء بالصديق الغادر يتجاهله وينكره، ويسأله بتعالٍ : من أنت ؟!. ويذهل الصديق القديم ، ويتضرج وجهه بالاحمرار ، ويحس بالحرج والألم ، لكنه لا يفقد الأمل فى صديقه السابق ، ويرجح حسن الظن فيه على سوئه ؛ فيتصور أنه ربما قد نسيه لبعد الذكرى . . ويروح يذكره بما كان بينهما من صداقة مخلصة ، وود صاف ، وذكريات مشتركة . . . وكل ذلك فى مقاطع حزينة شجية من الأغنية ، فما إن ينتهى من سرد بعض هذه الذكريات فى كل مقطع ، حتى يفاجأ بالصديق « النذل » يسأله بنفس الاستنكار : من أنت ؟ ! .

ويردد كورس الفرقة سؤاله بأسى أكثر من مرة ، كأنما ينعون على الدنيا الوفاء ، وهم يرددون :

- قال لى أنا مش عارفك . . إنت مين ؟ ، فيعود الصديق إلى تذكرته بما كان من أمرهما معا لسنوات طويلة ، ويبدى حسن نيته تجاهه ،

فيقول له : أنه لو كان قد غضب منه لشىء لا يعرفه ، فإنه يعتذر له سلفا عنه ، لأنه ليس فى الدنيا ما يستحق أن يفقد المرء صديقا قديما مثله من أجله . ويخيل إليه أنه قد استرضاه ،و لم يعد لديه أى مبرر لهذا الجفاء المؤلم ؛ فيفاجأ بالصديق الجاحد يكرر عليه نفس السؤال الجارح . . . وتتكرر مقاطع الاسترضاء والتذكير بالصداقة القديمة ... ويتكرر السؤال الجارح والإصرار على الإنكار والتجاهل ، إلى أن يشعر الصديق الوفى أنه قد أدى لصديقه الغادر كل حقوق الصداقة ؛ فلم يثمر كل ذلك إلا الجحود والنكران ، فيشعر فجأة بأن صداقته القديمة لهذا الإنسان قد ماتت ودفنت فى الثرى ، وبأنه قد فقد كل رغبة فى إحيائها من جديد ؛ فيقسم على «بصره» ألا يرى هذا الصديق ، الذى لم يحفظ حقوق الصداقة ما بقى له من عمر ، ويفاجئه فى ختام الأغنية الجميلة بقوله له هو هذه المرة :

روح أنا مش عارفك . . إنت مين ؟ .

وتنطلق الفرقة تردد عبارة المطرب الأخيرة بقوة وحماس غريبين ، كأنما تتشفى فى هذا الصديق الجاحد . . ويسود الارتياح الحاضرين لهذه النهاية التى شفت نفوسهم مما كانت تحسه من ضيق تجاه هذا الإنسان الجحود ، ويصفقون بحرارة للمطرب الذى «ثأر» لهم فى النهاية من هذا الوغد ، ومن كل أوغاد الحياة من أمثاله .

وقد لاحظت أكثر من مرة ـ خلال استماعى لهذه الأغنية بين الجمهور ـ أن من كانوا يسمعونها لأول مرة كان « غضبهم » لنذالة هذا

الجاحد يتصاعد شيئا فشيئا كلما غالى صديقه فى استرضائه ؛ وتمسك الآخر بصلفه وكبريائه ، وأن ارتياحهم للنهاية المفاجئة من المطرب كان يعبر عن نفسه بالتصفيق الحار ، وبعض كلمات السباب من نوع : يستاهل ابن ... كأنما ينفسون بذلك عن احتقارهم وكراهيتهم لكل رفيق صبا غرته الحياة ؛ فأبعدته عن أصدقاء الزمن القديم ! .

ولا غرابة فى ذلك . . . فلقد صور الشاعر العربى القديم نفس هذه المرارة التى يحسها البعض تجاه من حلقوا فى السماء بعيدا عنهم ، فقال :

دعوتُ الله أن تسمو وتعلو

علُوَّ النجم فى أفق السماء

فلما أن علوتَ بعدت عنى

فكان إذن على نفسى دعائى !

وهو نفس الإحساس الذى قد تجد صدى له بين رفاق البدايات فى حياة كثير من المشاهير والعصاميين والناجحين فى مجالات الحياة المختلفة ، فكل خطوة فى طريق النجاح كانت تبعدهم عن رفاق البدايات البسيطة ، وتقربهم من أوساط جديدة وصداقات أخرى ، لا مكان بها لرفاق الكفاح القديم ... فكأنما كان نجاحهم نكبة على أصدقائهم القدامى ، بدلا من أن يكون نعمة عليهم ... وكأنما كانوا «يدعون » على أنفسهم بالشر حين كانوا يدعون لهم بالخير ، والأصلاء من الناجحين هم وحدهم الذين لا يتخلون عن وفائهم لأصدقاء الزمن

القديم ، ولا يقطعون مايربطهم بهم ، مهما حلقوا فى سماوات النجاح والثراء والمناصب . وهؤلاء هم الذين يعرفون حقا قيمة الصداقة الحقيقية المبرأة من كل غرض ، وأهميتها للإنسان ، بل إن بعضهم يعجزون نفسيا عن اكتساب أية صداقات جديدة فى عالم النجاح الذى دخلوه ، ويعتبرون كل صداقاته علاقات سطحية ، لا ترقى لمرتبة الصداقة الحقيقية ، مهما أجهد أصحابها أنفسهم لبلوغها، ويصرون على أن أصدقاءهم الحقيقيين هم هؤلاء الذين عرفوهم وارتبطوا بهم فى طفولتهم وصباهم وشبابهم المبكر وبداياتهم البسيطة ، أما الآخرون . . فمن «فراشات النجاح » التى يجتذبها الضوء ، وقد تفر من الحجرة إذا انطفأ المصباح !أما غير الأصلاء منهم ، فهم من يصورهم المأثور الشعبى فى أغنية المطرب الصعيدى ،و هم الذين يصورهم الشاعر العربى الممرور من صديق غادر مماثل ، فكتب مخاطبا إياه :

ترانى مقبلا وتصد عنى

وتزعم أننى أبغى رضاك

سيغنينى الذى أغناك عنى

فلا فقرى يدوم ولا غناك !

صحيح والله . . . فلا فقر يدوم حقا ، ولا غنى ... ولا نجاح ، ولا شهرة ، ولا منصب ، ولا جاه ، ولا صحة ، ولا شباب ، ولا عمر ، ولا أى شىء آخر ... ولا يبقى إلا وجه ربك ذى الجلال والإكرام ، ولا

يصمد من متع الحياة للزمن وتغيرات المزاج النفسى والصحة إلا متعة الأمان النفسى الذى يحسه الإنسان مع إخوان الصفاء، وأحباء النفس الحقيقيين ، الذين يحبونك بلا غرض ، وتحبهم بلا شائبة ، وترتاح إليهم، ويرتاحون إليك ، وتحرص عليهم ويحرصون عليك ... وهؤلاء هم الذين قال عنهم العظيم عمر بن الخطاب : « لولا ذِكْر الله ... ولولا إخوة يلتقط منهم الحديث ، كما يلتقط أجود الثمر من الشجر ، لآثرت الموت على الحياة ! » .

فأين أصدقاء الزمن القديم أين ؟ ، وأين بهجة الحياة الحقيقية معهم؟ وكيف يجرؤ «جاهل » على أن ينكر أحدهم إذا التقى به بعد غياب طويل ، فيفجعه بهذا السؤال الحقير :

ـ إنت مين ؟ .

ياريت تعود

لا أعرف ماذا تفعل بى هذه الأغنية حين أسمعها كل مرة . . وأحمد الحجار يغنى كلماتها الحزينة مغمض العينين . . وصوته المصهور بنار الألم يصور حرقة من يتمنى عودة السعادة المفقودة . . والحب الضائع ، ويتوسل له أن يعود ، وهو يعرف جيدا أنه لن يرجع ،ولن يعود . . فيتحول نداؤه إلى أمنية مستحيلة، وحلم بعيد . . ويهتف فى مرارة وحسرة : ياريت يعود .

نعم ، لا أعرف ماذا تفعل بى وبمشاعرى هذه الأغنية الحزينة كلما سمعتها ، ولا لماذا تهيج أحزانى القديمة ، وتثير تأملاتى فى الدنيا وأحوال الإنسان المعذب دائما بالأمل فى السعادة الضائعة . . والحلم المفقود « عود، ياريت تعود » . . هكذا نقول كلنا للماضى الجميل ، وسعادة الزمن القديم . . وصفاء المشاعر البريئة . . وسعادة القلب المفقودة . . ونحن نعرف جيدا أنه لن يعود منها شىء . . وأن ما مضى وانقضى لن يرجع ، ولن يعود. . حتى ولو فعلنا كما كان يفعل العاشق فى إسبانيا القديمة ، حين كان يستأجر فريقا موسيقيا صغيرا يغنى عنه

تحت نافذة محبوبته ، ويبثها مشاعر حبه وأمانيه فى اللقاء المستحيل ، فلا شىء يرجع حقا بعد أن يذهب يا صديقى للأسف ! . ولو رجع . . فلن يكون هو نفسه الذى « كان » . . ولن تكون أنت نفسك الذى « كنت » وأنت تستمتع به وتستعذب مشاعره وتستمتع بمتعة الممارسة الأولى له . . ولذة اكتشافه ومعايشته لحظة بلحظة . . . فالمشاعر كزجاج المرآة ، إذا انشرخ ، قد يمكن لصقه وإعادته إلى ما كان عليه ، لكن أثر الشرخ يبقى ظاهرا إلى نهاية العمر ، وقانون التغير يجرف كل شىء فى طريقه . . ويغير من شخصية الإنسان واستجابته للأشياء، وقدرته على الاستمتاع بالحياة .

والشاعر الفيلسوف طاغور يحكى لنا فى قصيدة جميلة قصة لقائه بعد سنوات طويلة مع أول فتاة أحبها فى حياته وتمناها لنفسه ، فيقول :

كنت أسير فى درب كساه العشب

عندما سمعت صوتا يقول :

هل تعرفنى ؟

فالتفت إليها وقلت :

لا أستطيع أن أتذكر اسمك .

قالت : أنا أول حزن كبير فى حياتك .

ثم همست : قلت مرة أنك ستظل حزينا للأبد .

فاحمر وجهى وقلت : نعم ، غير أن السنين مضت ونسيت .

وأخذت يدها فى يدى ، وقلت : ولكنك تغيرت .

فقالت : ما كان حزنا مرة . . أصبح الآن سلاما ! .

ومن بين كل ماقرأته من أشعار الشعراء فى الشرق والغرب ، لم أقرأ أجمل وأصدق من هذا التعبير الفريد .

أنا أول حزن كبير فى حياتك ! . . . فأحزان الحياة كثيرة . . لكن أول حزن كبير تعرفه القلوب الغضة هو الحزن على فقد الحب الأول . . وانهزامه أمام ظروف الحياة ، أو تقلب المشاعر ، أو غدر الأيام . ولو سألت أى إنسان عن أول حزن كبير فى حياته ، إلى جانب أحزانه على رحيل الأعزاء ، لأجابك بأنه حزنه على فقد حبه الأول ، وأحلام سعادته معه .

ورغم ذلك . . . فلقد نسى طاغور حزنه الأول الكبير ، ولم يكد يتعرف عليه حين التقى به . . و هو يفسر لنا هذا التناقض المؤلم بأنه عندما ينقسم الحجر إلى نصفين ، فإنه يمكن إعادة ضمهما معا بيسر وإحكام ، لكن الأمر يختلف مع الإنسان لأنه كائن حى ، ومتغير دائما ، لهذا فعندما يفترق الناس لسنوات طويلة ، فإنه يتعذر إعادة «ضمهم» مرة أخرى ، ليعودوا كما كانوا تماما من قبل ! .

وهذا صحيح للأسف ! ، وتستطيع أن تلمسه فى حياتك الشخصية ، حين تلتقى بأصدقاء الصبا الذين كنت تستمتع بالحديث معهم لفترة طويلة ، ثم باعدت بينك وبينهم الأيام لسنوات طويلة ؛ فتجد نفسك

بعد حرارة اللقاء ، واستنفاد حديث الذكريات ، عاجزا عن التواصل معهم بنفس الدرجة التى كنت تتواصل بها معهم من قبل . . وربما عجزت بعد ساعات من اللقاء ، أو بعد عدة لقاءات عن الحفاظ على خيط الحديث متصلا بينك وبينهم مرة أخرى .

ولا غرابة فى ذلك . . . فأنت لم تعد الإنسان الذى كنته . . وهو لم يعد الإنسان الذى كان . . وكل منكما إنسان جديد الآن ، حفرت الأيام فى قلبه وعقله وشخصيته آثارا جديدة ، غيرت الكثير من ملامحه القديمة ومزاجه النفسى واستجابته للأشياء . فإذا تجددت الصداقة بينكما وتواصلت ، فليس لأن كلا منكما صديق قديم للآخر . . وإنما لأن كلا منكما صديق « جديد » ، وجد فى الآخر ما يستميله إليه . . وأصبحت الصداقة القديمة رصيدا إضافيا يرسخ الصداقة الجديدة .

ومع أننا نعرف جيدا أن ما ذهب لا يعود . . وأن الشباب إذا ولى لا يرجع مرة أخرى . . والصحة إذا ذهبت لا تعود أبدا كما كانت ، والحب إذا فقد لا يمكن استعادته نقيا وصافيا وبريئاً كما كان . . مع أننا نعرف كل ذلك جيدا للأسف ، فإننا لا نكف عن الأمل فى استعادة السعادة ، والحب ، والشباب ، والصفاء ، والماضى الجميل . . ونحلم بذلك كثيرا ، كأننا نعترف مع الأديب الفرنسى جوستاف فلوبير ، بأن أجسامنا تمضى للأمام . . وأفكارنا ترجع إلى الخلف ! ؛ فنتعلق بالماضى الجميل ، رغم أننا نعرف أن تعلقنا به لن يورثنا إلا المرارة والحسرة ، وقد يقلل من قدرتنا على تقبل أقدارنا والتواؤم مع حياتنا والاستمتاع بها .

ونظر دائما للخلف ، فنكرر غالبا خطأ أورفيوس الذى نظر خلفه فى الأسطورة القديمة ، ففقد سعادته فى نفس اللحظة التى نجح فى استعادتها فيها ، فلقد أحب فتاته الجميلة يوريديسى وتزوجها ، فماتت بلدغة ثعبان ، وحزن لفراقها حزنا شديدا، وصمم على إعادتها للحياة مرة أخرى؛ فهبط إلى عالم الموتى ، واستطاع بسحر عزفه على القيثارة أن يستولى على قلب ملك العالم السفلى ، فاستجاب لرجائه ، وسمح لزوجته بالعودة معه إلى عالم الأحياء لكنه اشترط عليه ألا ينظر خلفه ليرى وجه حبيبته فى رحلة الصعود إلى أن يصل إلى وجه الأرض . وسار أورفيوس فى المقدمة ، ومن خلفه زوجته . . فلم يطق صبرا ، واشتاق لرؤية وجه حبيبته ، فنظر وراءه ليراها ؛ فاختطفتها الأشباح ، وعادت بها إلى العالم السفلى ، وعاد هو وحيدا حزينا . . وظل يبكيها إلى أن مات، وأصبحت أسطورة هبوط أورفيوس رمزا لفكرة الإنسان المعذب باستعادة سعادته المفقودة . . فيجهد نفسه لاستعادتها ، ويفقدها فى نفس اللحظة التى نجح فيها فى الوصول إليها .

ومع ذلك . . فمازلنا نأمل فى استعادة الماضى الجميل بكل رموزه ، ونحن نعرف أنه حلم مستحيل .

ومازالت قلوبنا وأرواحنا تتعلق بسعادة الزمن القديم ، وصدق مشاعره ، ومتعة أوقاته ، وتهفو نفوسنا إلى استعادة كل ذلك بطريقة سحرية غامضة . . وكأن شيئا لم يكن . . وكأن قانون التغير قد فقد تأثيره فينا . . وكأن دورة الحياة ستعود إلى الخلف، وتعيد إلينا ما مضى

من حياتنا ، وما أخذته الدنيا من أيدينا . . وما حرمتنا منه من صفاء الأيام . . وراحة القلب ، لكن دورة الأيام لا تعود للأسف .

ولم يبق للجميع إلا عزاء طاغور للتعساء فى كل مكان بأن « ما كان حزنا مرة . . قد أصبح الآن سلاما » .

وهو لا يصبح سلاما إلا بعد سنوات طويلة . . وبعد أن تحفر الأيام تجاربها الجديدة فى القلب الحزين . . فتطغى على الأحزان القديمة ، أو تخفف من حرقتها . . وسواء أصبح ما كان حزنا سلاما أم لم يصبح بعد سيجد الإنسان نفسه يغنى من حيث لا يشعر ولا يريد مع أحمد الحجار لسعادته القديمة . . وشبابه الضائع ، وصحته الذاهبة ، وأيامه الجميلة الماضية : ياريت تعود ! . . . وسيجد نفسه أيضا يقول مع فارس الأحلام القديمة الشاعر الراحل صلاح عبد الصبور :

يا أيها الحب الذى مات

لو يرجع اليوم الذى فات

لو عاد يوم منك . . عشناه! .

زيارة مهمة جداً !

انتظرت صديقى المقيم بباريس ذلك الصباح بمقهى « جورج سانك » بشارع الشانزليزيه ، وأنا أفكر كيف أقنعه بمصاحبتى إلى زيارة هذه الشخصية العظيمة بلا مقاومة جدِّية من ناحيته ؟ .

فصديقى هذا ليس من أهل الفكر والفن ، وليس « مضروباً » بالأدب مثلى، لكى يشاركنى هذا الاهتمام ، أو يستجيب لمثل هذه «النزوات » الطارئة ، إنما هو رجل عملى، هاجر من مصر منذ عشرين عاماً واستقر فى باريس ، وبدأ فيها من الصفر ، ثم حقق نجاحه بعد كفاح طويل ، واستقرت أحواله المادية ، وأصبح صاحب عمل صغير، يستخدم فيه خمسة أو ستة من أبناء بلده ، لكنه إنسان رَضِىّ النفس والخلق. . يحب البشر، ويخص أصدقاءه بطوفان من مشاعر الحب والإخلاص ، ويضحى باعتباراته الشخصية دائماً لصالح اعتباراتهم . وحين أكون فى باريس يصاحبنى معظم أيامى بها ، فيصحو من نومه مبكراً ، ويذهب إلى عمله ، فيطمئن على سير الأحوال فيه ، ثم يأتينى حيث أكون فى الحادية عشرة صباحاً ، « زاعماً » أنه قد

فرغ تماماً من كل عمل ، ولم يعد لديه ما يفعله حتى صباح اليوم التالى ، ولهذا . . فهو مستعد لاصطحابى إلى أى مكان أريد الذهاب إليه .

وحين اتفقت معه على اللقاء فى مقهى «جورج سانك» هذا الصباح ، لأن لدى «عملاً» مهماً أريد أن أؤديه ، تخيّل أنى سأطلب منه أن يصحبنى إلى بعض المحلات التجاريه لشراء ما أحتاج إليه ، لكنه فوجىء بى - بعد أن شرب قهوته - أدعوه إلى النهوض على عجل ، لأننا ذاهبان إلى زيارة « شخص عظيم » فى بيته ! .

وبتلقائية شديدة ، نظر إلى « السويتر » الذى يرتديه فوق القميص بدون ربطه عنق ، وسألنى فى تردد : وهل تليق ملابسى هذه بمقابلته ، أم يَحْسُن بى أن أعود إلى البيت لارتداء البدلة الكاملة ؟ ، فطمأنت خواطره إلى أن « الشخص العظيم » الذى سنزوره لايأبه لمثل هذه الشكليات ، وأنه « يحب» البشر جميعاً ، ولا يحكم عليهم بملابسهم ، وإنما بعقولهم وأفكارهم ، وبما تنطوى عليه قلوبهم وصدورهم من خير وحب للإنسانية . ووفقا لهذه الاعتبارات . . فهو عنده أفضل كثيراً ممن يرتدون الملابس الرسمية ، ولا يحملون للبشر بعض ما يحمله هو لهم من حب وعطف .

واطمأنت نفس صديقى إلى ما قلت له ، وغادرنا المقهى ، فأوقفت سيارة أجرة ، وأعطيت السائق ورقةً صغيرة تحمل العنوان المطلوب ، وتشاغلت بمراقبة الطريق وزحام البشر من نافذة السيارة ، ووصلت العربة أخيراً إلى ميدان مربع الشكل تقريباً بأحد أحياء باريس ، تطل

عليه البيوت القديمة . . وتوقفتْ أمام أحد هذه البيوت ، وغادرناها . . وصديقى يسألنى : أهذا هو بيت السفير المصرى ؟، فلم أجبه سوى بابتسامة غامضة ،كأنى أقول له بها : انتظر وسترى ! ، ثم سحبته من يده، ودخلنا من الباب الخشبى القديم إلى فناء داخلى صغير ، ودهش صديقى حين رأى فى الفناء بعض الأشخاص الذين يبدو عليهم من هيئاتهم ، والزى الموحد الذى يرتدونه ، كما لو كانوا من الموظفين العاملين ، بالمكان، وليسوا من أهل بيت نزوره ! .

وهمّ بأن يكرر علىّ السؤال . . لكنى لم أدع له الفرصة ، واتجهت إلى نافذة صغيرة ، وحييتُ الشخص الجالس خلفها ، وقلت له : تذكرتان من فضلك ! .

فسألنى صديقى بانزعاج : أى بيت هذا الذى يشترى ضيوفه «التذاكر » قبل دخوله؟ ! ، فلم أجد مفراً من أن أصارحه ـ ونحن نعبر باب البيت الداخلى ، وبعد أن ضاعت عليه فرصة المعارضة أو الانسحاب ـ بأننا نزور الآن بيت الأديب والشاعر العظيم فيكتور هوجو، لكنه لن يكون ـ للأسف الشديد ـ فى استقبالنا ، لأنه عاش بين عامى ١٨٠٢ ، و ١٨٨٥، وإن كانت أعماله الأدبية الرائعة مازالت تعيش من بعده ! .

فيكتور هوجو ؟ . تساءل صديقى مندهشا ، فأجبته فى عجلة : نعم . . نعم ، اتبعنى فقط ، ولن تندم ! .

ثم دخلت إلى قاعة الدور الأرضى ، وتجولت بين مرافق البيت والمطبخ ، وصعدنا إلى الدور العلوى ، ووقفت مذهولا أمام الغرفة الصغيرة التى تضم مكتباً صغيراً جداً، يرتفع كالمائدة العالية الصغيرة، ويحمل محبرةً حديديةً قديمة ، تبرز منها ريشة أثرية كان يستخدمها الشاعر العظيم فى كتابة أشعاره وأعماله الأدبية .

وتأملت غرفة نومه . . وحجرة صالونه . . وحجرة الطعام بمائدتها الطويلة، ومقاعدها الكثيرة التى كان الشاعر العظيم يحرص على أن يستضيف عليها ١٢ ضيفاً أو ١٤ ضيفاً ، لأنه يتشاءم من الرقم ١٣ ، وتأملتُ غرفة نوم مدام جولييت دروويه ، التى حرصتْ على أن تقيم فى غرفة مجاورة للغرفة التى يعمل بها هوجو، لتكون رهن إشارته فى أية لحظة من الليل والنهار ، ولتنهض لإعداد مشروب ساخن له إذا سمعت سعاله خلال الليل ، فهى توءم الروح التى تفانت فى حبه خمسين عاماً كاملة ، تحملت خلالها صابرة لهب الغيرة الصامتة من زوجته « آديل » ، ولهب الغيرة من عشرات الجميلات اللاتى تهافتن على « معبودها » القديم، ورغم ذلك . . فلقد أحبت زوجته آديل حين تعرفت عليها، واحتفظت معها بعلاقة احترام غريبة ، حتى رحلت عن الحياة، ولم تطالب هوجو بأن يتزوجها من بعدها ، احتراماً لذكراها ، ولمشاعر أبنائه منها وأحفاده ، وعاشت له ومن أجله وبالقرب منه فى باريس وفى المنفى، حتى رحلت عن الحياة قبله بعامين ، وهى فى السابعة والسبعين

من عمرها ، فانكسر قلب الشاعر العظيم ، وكتب بهذه الريشة التى رأيتها فوق مكتبه الصغير:

ـ آه ياإلهى . . كيف أعبر بدونها السنين ؟

وبعد عامين وبضعه أيام فقط من رحيلها عن الحياة ، أصيب هوجو باحتقان فى الرئة ، وذاع نبأ مرضه الشديد فى أرجاء باريس ، فاحتشد حول هذا البيت الذى نزوره الآن جمهور غُفير ، رغم البرد والمطر. وصدرت نشرة رسمية عن حالته الصحية تقول : إن حياة الأديب الكبير فى خطر.

وأفاق هوجو يوم ٢٢ مايو عام ١٨٨٥ من غيبوبته ، فودّع صغيره جورج ، وحفيدته جان ، ورَنا إلى من يحيطون به بعينين غائمتين ، ثم همس قائلاً : إننى أرى نوراً أسود ! . وبعد ساعات أخرى فارق الحياة ، وفتحوا وصيته ، فوجدوه قد أوصى بخمسين ألف فرنك من ثروته للفقراء ، وأوصى أيضاً بأن يدفن فى مدافن الفقراء .

وأُذيع نبأ رحيل الشاعر العظيم ، فأوقف مجلسا النواب والشيوخ الفرنسيان جلستيهما حداداً على وفاته . . وقرر المجلسان معاً إهدار وصية هوجو بدفنه فى مقبرة الفقراء ، لأن العظماء ليس من حقهم أن يرفضوا تكريم الأمة لهم بعد رحيلهم ، وقررا أن يدفن هوجو فى مقبرة العظماء «البانثيون » ، بعد أن يعرض جثمانه تحت قوس النصر، ليتاح للشعب الفرنسى أن يودعه قبل نقله إلى مثواه الأخير .

أما البيت الذى « زرته » فيه ذلك الصباح ، فلقد استأجره هوجو عام ١٨٧٨ ، أى قبل وفاته بسبع سنوات فقط ، وكان الشارع الذى يقع فيه اسمه شارع « إيلو » . وبعد أربعة أعوام من إقامته فيه ، بلغ هوجو الثمانين من عمره ، فاحتفلت فرنسا بعيد ميلاده احتفالاً قومياً هائلاً ، وأقيم قوس للنصر فى الشارع الذى يقع به البيت ، وراحت الوفود الشعبية تعبر القوس أمام الكاتب الكبير لتحيته ، وهو يقف بشرفة مسكنه ، تغرورق عيناه بالدمع ، وهو يرى أكثر من نصف مليون فرنسى يعبرون أمام بيته تحيةً للشاعر العظيم ، فى حين انهالت على البيت الصغير باقات الزهور من كل أنحاء فرنسا ، وصدر قرار بإعفاء جميع تلاميذ المدارس والمعاهد من العقوبات المدرسية الموقعة عليهم ، ابتهاجاً بهذه المناسبة العظيمة ! .

وزار رئيس مجلس الشيوخ الفرنسى الأديب الكبير فى بيته ، مهنئاً بعيده الثمانين ، ثم دعاه لحضور جلسة خاصة ستعقد لتكريمه بعد أسبوع . وحين دخل الشاعر العظيم قاعة المجلس ، وقف جميع الأعضاء يصفقون بحرارة شديدة ، تحيةً للأديب الذى أسموه شاعر القرن التاسع عشر . . وضميره وقلبه ! . وبعد بضعه شهور من هذه المناسبة ، صدر قرار من بلدية باريس بتغيير اسم هذا الشارع من «إيلو» إلى شارع فيكتور هوجو! .

أما قبل هذه المناسبة ببضع سنوات ، فقد شهدت باريس مناسبة أخرى أكثر أهمية، هى عودة الشاعر العظيم إلى بلاده عام ١٨٦٩ ، بعد

١٩عاماً أمضاها فى المنفى ، ممنوعاً من العودة إلى بلده ، بسبب أفكاره الجمهورية ، ومشاركته فى الثورة الشعبية ضد الإمبراطور نابليون الثالث ، ثم استسلم الإمبراطور أخيراً ، واضطر لإعلان الجمهورية . . فغادر هوجو بروكسل بالقطار يوم ٤ سبتمبر ١٨٦٩ ، وبلغ القطار محطة الشمال بباريس مساء نفس اليوم ، فما إن وصلها ، حتى أحاط به طوفان من البشر ، اضطر هوجو لأن يخطب فيهم أربع مرات ، رادّاً تحيتهم له ، وتمتم والدموع تلمع فى عينيه « لكم يحبنى هذ الشعب وأحبه » ، وقال لمن استقبلوه بهذا الطوفان من الحب والتكريم :

ـ لقد رددتم لى فى ساعة واحدة ثمن عشرين عاماً عشتها فى المنفى ! .

وحملته الجماهير على الأعناق ، تريد أن تذهب به إلى مقر بلدية باريس ، فرفض قائلاً : كلا أيها الأصدقاء ، فإنى لم أحضر لزعزعة مركز الجمهورية المؤقتة . . وإنما لأؤيدها ! .

ومن عجب أن هذا الأديب العظيم الذى قُدّر له أن يكون أكثر البشر حماساً للجمهورية ، قد نشأ فى أسرة تقدس الملَكية ، فقد كان والده قائداً فى جيش الإمبراطور نابليون الأول ، وفُتن هو نفسه بشخصية نابليون حين رآه يسير راكباً حصانه فى شوارع باريس « صامتاً شجاعاً ، كأنه إله من البرونز » كما وصفه هو فيما بعد .

ثم بدأت بشائر عبقريته فى الظهور حين أعلنت الأكاديمية الفرنسية عن مسابقة فى الشعر عام ١٨١٦ ، فاشترك فيها الفتى الصغير بقصيدة

طويلة من ٣٣٤ بيتا ، ولم تصدق الأكاديمية أن كاتبها فتًى فى الرابعة عشره من عمره ؛ فحجبت عنه جائزتها الأولى! . . . لكنه لم يلبث أن عوّض هذه الفرصة بالفوز بجائزة مسابقة أكاديمية تولوز بعد بضعة أشهر أخرى .

وتفجرت موهبته الشعرية أكثر عمقاً وخصوبة خلال أحداث قصة حبه الأولى للفتاة الصغيرة آديل فوشيه ابنة الأسرة الصديقة وهو فى السابعة عشرة من عمره ، لكن أباها يرفض قبول خطبته لها ، لأنه طالب لا مورد له ، ويعتزم الاشتغال بالأدب، الذى لا يضمن لابنته حياة كريمة مستقرة من الناحية المادية . ويتهرب الأب من استقباله فى بلده « درو» على بعد أربعين كيلو مترا من باريس ، ولا يجد الفتى الشاعر فى جيبه ما يدفعه لعربة نقل المسافرين التى تجرها الجياد ، ليلحق بأسرة فتاته ، فلا يتراجع . . وإنما يقرر أن يذهب إليها سيراً على الأقدام ، ويسير لمدة ثلاثة أيام متواصلة ، حتى يصل منهمكاً إلى بيت أسرة آديل ، فلا يجد أبوها مفراً من استقبالها بعد هذا الإصرار العظيم ، ويوافق على خطبته لابنته بصفة غير رسمية ، ثم يبدأ نجم الشاعر الصغير فى الصعود مع ظهور ديوانه الأول، ويحصل على معاش استثنائى من ملك فرنسا ، ويتزوج فتاته التى عرفها منذ طفولتهما ، ويُجَن شقيقه «أوجين » الذى كان يشاركه حب آديل أيضاً ، ويودع أحد المستشفيات العقلية ! .

وبعد ثمانى سنوات من السعادة الزوجية، أنجب خلالها الشاعر

أربعة أبناء ، بدأت آديل تتململ وتتلفت حولها . . ثم لم تلبث أن ضعفت أمام الناقد الشاب الشهير سانت بيف وأحبته ، وشقى فيكتور هوجو بخيانتها له ، وكتب :

انظر إلى هذه المرأة

إنها لا تحبك . . إنها لا تكرهك

وهذا هو كل شىء !

لكنه لا يلبث أن يجد عزاء قلبه الجريح فى الممثلة الجميلة جولييت درورويه، التى تشارك فى تمثيل مسرحيته « لوكريس بورجيا» . وبعد مقاومه مبدئية من جانبه لجمالها وإغرائها الشديدين ، يستسلم لأحضانها، فتخلص له الحب من اللحظة التى بدأت فيها قصتها معه وهى فى السادسة والعشرين من عمرها ، إلى أن تلفظ أنفسها الأخيرة، وهى فى السابعة والسبعين ، بعد ٥١ عاماً من الحب المتوهج الذى لم تخمد لهيبه السنون ، عاشت خلالها من أجله ، وأغلقت بابها فى وجوه عشاقها القدامى ، ورضيت بحياة متقشفة هادئة فى ظلاله . . واهتمت بتنظيم حساباته . . ونسخ أشعاره حين يمليها عليها ، وراحت تكتب إليه الرسائل شبه اليومية ، تبثه فيها حبها وإخلاصها ، وتخاطبه فيها بعبارة: إلهى الصغير ! ، وكتبت له ذات مرة : لو كان للإنسان أن يشترى سعادته بحياته ، لأنفقت حياتى منذ زمن طويل ! .

وبين حب جولييت دروويه الملتهب له ، وصحبة آديل زوجته ،

التى وصف أحد النقاد حبها له بأنه كشمس الغروب ، التى تبعث بعض الدفء فى الجسم ، لكنها لا تعفيه من الإحساس بالبرودة ! ، عاش الشاعر العظيم حياته يكتب الأشعار ويؤلف المسرحيات والروايات العظيمة ، ويتعالى على الأحزان والآلام التى اعترضت رحلته فى الحياة ، ويحث صديقه الغادر سانت بيف على الابتعاد عن زوجته آديل .

وتشهد باريس ثورتين عامى ١٨٣٠ ، و ١٨٤٨ ؛ فينضم الشاعر العظيم إلى صفوف الشعب ، ويخاطر فى سبيل ذلك بسمعته ومكانته الأدبية وحياته ، ويكتب روايته الخالدة « البؤساء » ، وتصدر الرواية ذات صباح ، فيحاصر الباريسيون مكتبة « نايير » منذ السادسة صباحاً .. ولا تمضى بضع ساعات ، حتى تكون كل نسخ طبعتها الأولى قد نفدت ، ثم تتوالى أعماله ورواياته ومسرحياته الرائعة : أحدب نوتردام ، « وهرنانى » ، و « الملك يلهو » ، و « الكادحون فى البحر » .. إلخ .

ويترنم الملايين بقصائده الشهيرة « التأملات » و « العقوبات » و«أسطورة القرن » و « الأصوات الداخلية » ، ويُختار فيكتور هوجو عضوا بالأكاديمية الفرنسية ، ويقاوم الشاعر العظيم طغيان نابليون الثالث ؛ فيصدر القرار بنفيه إلى خارج بلاده بعد إخماد الثورة التى شارك فيها هوجو ، ويفرّ من باريس متخفياً ، حتى لا يقع فى أيدى الشرطة تحت اسم العامل « فرمان لانفان » ،و يصل إلى بروكسل فى ديسمبر ١٨٥١ ، وتلحق به من لا تطيق الحياة بعيداً عنه (مدام جولييت درווويه) فى نفس اليوم .

وفى منفاه يعيش هوجو ، ويُملى أشعاره على جولييت ، أو يكتبها واقفاً على مائدة مرتفعة ، كعادته منذ احترف الكتابة ، تاركا وراءه أسرته فى باريس . ويتوجس هوجو من أن تقوم حكومة نابليون الثالث بمصادره أملاكه ، فلا تجد أسرته ما تعيش به ، لكن حكومة نابليون تتفادى إثارة المزيد من استياء الشعب ؛ فلا تمس أملاكه ، بل وتعامل أسرته معاملة كريمة ، فتسمح لها بالتنقل بين باريس وبروكسل كيفما تشاء ، وتلحق به زوجته وابنته بعد عام ، فتحترم جولييت مشاعر الزوجة ، وتحرم نفسها من الحديث إليه حين تكون معه . . وتكتفى بالحياة فى مسكن قريب من بيته لترقبه فى حب وأمل حين يخرج أو يدخل ، إلى أن يجد الوقت المناسب لزيارتها .

وتصدر روايات هوجو الشهير فى باريس ، وتمثل مسرحياته وهو بعيد عنها ، محروم من العودة إليها . . ويبلغ أوج شهرته وعظمته فى سنوات المنفى ، حتى ليرسل إليه قارىء من إنجلترا ، وهو يقيم بجزيرة جيرنزى خطابا لا يكتب عليه سوى : فيكتور هوجو . . المحيط الأطلنطى ، فيصل إليه الخطاب فى منفاه ! .

وتكتشف زوجته آديل « عظمته » أخيراً . . بعد سنوات طويلة ، وتستمتع بمجده وشهرته ، واحترام شباب فرنسا لها ، وتشعر بفخر شديد حين يقول لها طالب فرنسى ذات يوم : (إن فيكتور هوجو هو دينا !) . وتشهد افتتاح مسرحياته فى باريس وهو غائب فى المنفى ، وتُستقبل فيها من الجمهور بالحفاوه والتكريم ، ويقترب منها الموت ،

فتقول آسفةً : (إن ما يحزننى هو أننى أوشك أن أموت فى نفس الوقت الذى بدأت أقدر فيه مؤلفات زوجى العظيمة وأتذوقها . . فيا للأسف أننى أموت فى نفس اللحظة التى يأتينى فيها العقل !) .

ويختلط المجد بالألم . . . بالسعادة . . . بالشقاء فى حياة الشاعر العظيم ، فتشهد حياته مأساة موت ابنه ، ووفاة ابنة شابة له ، وجنون ابنة أخرى ، ثم وفاة زوجته آديل التى أحبها منذ كان صبيا ، فيقول عن نفسه أنه « نبىّ الألم » ، ويواجه أقداره بشجاعة وثبات ، ويواصل عمله وإنتاجه الغزير وإقباله على الحياة ، ويقول معزّيا نفسه وكل المجروحين والمهمومين : « **ما الحزن إلا مقدمة للسرور** . . ولو أننا دَرّبنا أنفسنا على الإصغاء جيداً لسيمفونية الحياة ، لاكتشفنا أنها لابد أن تنتهى فى النهاية بنغم جميل ! » .

وتنتهى حياة فيكتور هوجو بالفعل بنغم جميل جليل من النجاح الأدبى والمادى ، وتكريم الشعب الفرنسى له ، فتُرى هل عوضه ذلك حقاً عما أصابته به الحياة من جراح وفاة الأبناء ، وجنون ابنته ، وخيانة زوجته له ، ثم رحيلها عن الدنيا . . وأخيراً عن رحيل توءم القلب المخلصة (جولييت) قبله بعامين ؟ .

غرقتُ فى خواطرى وتأملاتى ، وأنا واقف أمام لوحة مدام جولييت دروويه فى بيت فيكتور هوجو ، الذى حولته الحكومة الفرنسية إلى متحف ومزار ، يؤمه عشاق أدبه من كل أنحاء العالم ، فإذا بى أتنبه فجأة على يد صديقى الذى انشغلت عنه تماماً حوالى ساعتين ، وهو

يجذبنى من ذراعى ، ويقول لى : الساعة اقتربت من الثانية . . ولم أذق طعاماً منذ الصباح ! . . . فلم أجد مفراً من الاكتفاء بهذا القدر من « ضيافة » الشاعر العظيم . وقبل أن أغادر القاعة ، سألت أمين المتحف عن صورة زوجته (آديل)، فأشار إلى لوحة أخرى مقابلة ، فاتجهت إليها وتأملتها للحظات ، ثم أشرت إلى لوحة جولييت درووية ، وقلت لأمين المتحف : إننى أحبها أكثر ! . . . فضحك الرجل ضحكة قصيرة وهو يقول لى : و أنا أيضا . . وأظن أن معظم الفرنسيين مثلى ومثلك فى ذلك ! .

ثم اشتدّت قوة الجذب من يد صديقى الصبور ، الذى احتمل ذهولى عنه طوال هذه الفترة ، فغادرتُ القاعة والبيت كله ، ومازالت صور عديدة من حياة هذا الشاعر العظيم تتراءى لى فى مخيلتى ! .

الفهرس

ساعات من العمر

يقول الأستاذ الكبير عبد الوهاب مطاوع فى مقدمة هذا الكتاب :

« ما حياة الكاتب إلا تجارب وأحداث ينفعل بها ، ويتفاعل معها ، وتختلط فى أعماقه بذكرياته السابقة ، وآماله وإحباطاته القديمة .. وحين يجلس الكاتب إلى أوراقه وقلمه ليكتب ، فإنه يعيد إفرازها على الورق مختلطة بأحلامه الذاتية وآماله العامة للبشر والحياة .. » .

ويقدم لنا الأستاذ عبد الوهاب مطاوع فى هذا الكتاب تسعة عشر موضوعاً إنسانياً عن تجارب وأحداث صادفته فى الحياة ،. صاغها بأسلوبه الرقيق الذى يتميز بالقدرة الفائقة على التعبير الصادق عن التجارب الإنسانية ، والعرض الشيق الجذاب الذى يسمو بمشاعر القراء ؛ ويحلق بهم فى آفاق من الصفاء الروحى وبهجة النفوس .

الناشر



- مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب .
- حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين الصحفية عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية .
- يكتب باب « بريد الجمعة » الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام ١٩٨٢ ، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام .
- صدر له ٤٥ كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها، ويتضمن البعض الآخر قصصًا قصيرة وصورًا أدبية ومقالات فى أدب الرحلات .
- له ثلاث مجموعات قصصية هى : «أماكن فى القلب» و«لا تنسنى» ، و«الحب فوق البلاط» .



